مذكرات من تحت بيت الدرج

رقم الايداع لدى
دائرة المكتبة الوطنية
2014/3 /1336

13,9
العدوان،نائل خالد
نائل خالد العدوان –مذكرات من تحت بيت الدرج- عمان: دار فضاءات، 2014
الواصفات: / القصص العربية // العصر الحديث.

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-569-7



الطبعة الأولى: 2014
جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق
مذكرات من تحت بيت الدرج - نائل خالد العدوان – الأردن
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن

E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

نائل العدوان

مذكرات من تحت بيت الدرج

رواية



الإهداء

إلى كل مجنون رفض أن يكون العقل قيداً

تنويه

تحتوي هذه الرواية على عدة درجات لا يمكن صعودها بالترتيب، لكن يمكن سماع وقع الخطوات من فوقها.

الدرجة الأولى: قطة زهرية

أين مفاتيح غرفتي؟

أرتجف من الكلمات التي تهيم في صدري غير مدرك لما تؤول إليه الأمور، أغيبُ عن الوعي ولا أدري ما الذي سيحل بي، لكنني أعرف تماماً أن السماء لن تمطر حلا في هذه الساعة! أكاد أن أجن لضياع مفاتيح هذه الغرفة اللعينة، هي غرفة رثة، تصيبها العفونة في كل شتاء، رائحة نتنة تدوخني وتلهب صدري كلما صحوت من نومي، أما في الصيف فإنني لا أنام بسبب الناموس الذي يكثر حينها، سأسقط تحت الدرج! أين المفاتيح؟ دقات قلبي تتزايد كلما ازداد شعوري بأن المفاتيح قد فقدت، لا، هي ها هنا، بجيبي الصغير، ذلك الجيب الذي يضيع فيه كل شيء، سجائري، وردة ذات أوراق ذابلة أهدتني إياها ابنة الجيران، حلوى لذيذه التقطتها عنوة من أحد المارة،

ذكريات طفولتي، حُلمي الذي ضاع عنوةً عني، أشياءُ كثيرة، جيبي الذي أنسى وجوده دائماً، يذيقني الفجيعة، أحسُ بكائن وهمي يداهمني ويجعلني أصرخ، هل أصرخ؟ ولِمَ لا؟ فلا بد لي من الهروب منه، هو سيهرب أيضاً، سنهرب سوية، لكن بطريقين مختلفتين، هو بأم عينه، الرجل البشع، ما الذي يريده مني؟ ابتعد، أنت غبي، ابتعد، سأركلك بقدمي، أقول متذمراً، وأمزق ثيابي حتى يغرب عن وجهي، أنا أرتجف، لا أستطيع التنفس، سأبكي، هل يسمع العالم بكائي، بعد أنْ ضاعت مفاتيح عقلي.

آه، لقد ابتعد عني، أراه يبتعد كقط يعدو، حتما يمكنني الدخول الآن، أود أن أغني، أشعر بأن الغناء يُريحُ أعصابي، أضحك كثيراً عندما أسمع صوتي، صوتي جميل، هكذا قالت لي أمي مرة، أذكر أنها ضمتني إلى صدرها، لقد كُنت صغيراً آنها، ضمتني كثيراً، أوجعتني، شعرتُ بثقل ثدييها فوق رأسي، هل تود أن أشرب حليبها! أضحك من ذلك ولكنها تعصرني وتجهش بالبكاء، ولا أستطيع النظر بوجهها، أود النظر إلى حيث صوت النشيج لكنها تدفعني مرةً أخرى نحو صدرها، ورائحتها تضمخ أنفي، أحب رائحتها وأحب رائحتي، هل تضحك هي أيضا؟ لربما أنها تضحك معي، أمي التي غاب نبضها عني، لا أظن أنها غابت، قالت لي: أنت أجمل رجل! أجل، أنا أجمل رجل، أتريد أن أمشط لك شعرك! ولكنني أود اللعب قليلا يا أمي، أقول لها، أود أن ألهو مع القطط، ههه، القطط أيضا تحبني،

ولكنها تهابني، هل أرسل قطعة جبن صغيرة لها، أرجوك أمي، إنَّها تنتظر بالخارج، قطة مرقطة باللون العسلي والأسود، وقطة زهرية اللون، وتضحك أمي كثيراً، ثم تدمع عيناها، هي تضحك إذن! إنها بنية يا بني، تقول أمي، ولكنني أظنها زهرية، أن تكون القطة زهرية أجمل، أودها كذلك.. زهرية، أصحح خطأ أمي ثم أغيب خلف المباني، أطارد القطة الزهرية، وتغيب أمي ولا أكاد أراها.

تقتص مني القطة ذات اللون الزهري، تهرب ثم تتوقف قليلاً، تموء بصوت يجرح قلبي، لماذا لا تستطيع الكلام مثلي، والغناء والرقص، هي تسير في اتجاه لا أعرف منتهى له، أتبعها، أريد إطعامها، أمي تصرخ علي، سحنون، ارجع، وأخفُ الخطى وراء القطة، يختفي صوت أمي، كم أود أن أسمع صوتها، لا أريد أن ينقطع نداؤها، لماذا صَمتِّ يا أمي؟ اصرخي عليّ ووبخيني، ادْعيني أن أرجع للوراء، أريدُ أن أرجع إلى بطنك، أودُ أن أكون في الداخل ولا أخرج.

الدرجة الثانية: الوغد

مقالتي الأخيرة لم تعجب رئيس التحرير.

يقول أنها سياسية بامتياز متحيز، ولا افهم ما يرمي إليه، هل تكون السياسة متحيزة بغير امتياز، وإذا لم نكتب عن السياسة في هذه الأيام فعمَّ سنكتب؟ أُكتب عن أخبار البلد وحوادث الساعة، يقول رئيس التحرير، أنتفض على غير عادتي وأرمي الأوراق على سطح المكتب، رئيس التحرير يندهش لردة فعلي لكنه لا ينبس ببنت شفه، هو يعرف تماماً موقفي من الإعلام الذي تم اختراقه، لقد أصبح إعلاماً مشوهاً، يسير بعصا ولا يخير.

هي تجلس قبالتي ساهمة، الله، كيف لم ألاحظ الدفء في عينيها، تجلس بوداعة من خلف نظارات بنية اللون، عيناها عسليتان، لكنهما تبدوان بلون الأسود، أحاول تهدئة نفسي، رئيس التحرير يلاحظ ذلك وينطلق بحديثه:

– حبيبي أحمد، البلاد تمر بضائقة سياسية ويجب أن نقف صفاً واحداً لحمايتها.

– حمايتها من ماذا، هذا الرجل سيصيبني بالكآبة. أفكر ملياً وأقتنص النظر لعينيها من وراء زجاج الغرفة. أخفض صوتي:

– أبو العبد، المقال يخلو من أي مسؤولية محتملة، هو يتحدث عن حالة الفوضى في مؤسسات الدولة والتي يبدو جلياً أنها من فعل الدولة ذاتها، مؤامرة التفكك التي بدأت من مطلع هذه الألفية يجب أن لا تستمر، يجب أن نوقظ الشعب، نحن الصحفيّين، أرجوك افهمني!

– (مؤامرة على مين يا أحمد؟ أنت بدك تخرب بيتي! يا أخي اكتب عن الاقتصاد، عن العصافير، عن أي إشي إلا مواضيعك اللي مش عارف أولها من آخرها).

– التفكك سيصل لكل بيت، وكل مؤسسة، وكل شارع، التفكك قادم، ألم تفهم بعد. أعتذر منك، لا أستطيع أن أخون قلمي، هو المقال العاشر خلال هذا الشهر الذي يمنع من النشر، وماذا بعد!

– ماذا بعد! لا يوجد بعد، غيّر أفكارك، أو لن يكون هناك بعد.

الوغد، الذي يضع عطراً فاسداً، ويلبس ربطة عنق من مال فاسد، ويركب سيارة من مال فاسد يطلب مني أن أغير أفكاري، الوغد، الذي باع

روحه للشيطان وأسلم صحيفة بحالها لحكم المجهول يريدني أن أندس تحت حكم البساطير.

تصيبني كآبة، كبت داخلي يطبق على صدري، هل أنا مضطر لخوض هذه المعركة كل يوم، لِمَ لا أكتب كما يريد رئيس التحرير؟ فلأكتب مثلا عن أعداد الطيور المهاجرة من الأردن، أو عن مخزون المياه الذي يكاد أن ينفد، أو عن الطرق كما نصحني، لكن رباه، حتى مشاريع الطرق في الأردن يعبث بها فاسد، وأنت فاسد يا أبو العبد، أصرخ بوجهه.

- (مين! شو بتقول؟).

أتيقظ فجأة لأدرك أني أطلقت الكلمة بوجهه، يحمر وجهه ويقف، وتقف هي.

- أجل أنت فاسد، وأكبر فاسد، أقولها بملء فمي.

أحس بتسرب في داخل صدري، دم يجري في شراييني، ينتقل مباشرة من القلب باتجاه الأطراف، يدي، رأسي، عقلي، أشعر بالراحة، أجل إنني أشعر بالراحة، لطالما احتجت أن أصرخ بهذه الكلمة بصوت عالٍ: فاسد.

أخرج من الجريدة على عجل، لقد سمع الجميع هذه الكلمة، هو فاسد، ملطخ بفساد عاهر، ومجبول بكراهية سوداء لهذا الوطن، كل من أشاح بوجهه عن الفساد فهو فاسد، كل من صمت عن سوء وعرف عن مؤامرة وغض بصره عنها فهو متآمر وفاسد، كل من دارى سوءه فاسد فهو فاسد.

كلمة انحشرت في قلبي منذ أن عملت بهذه الجريدة قبل خمسة أعوام، حبستها كي لا ينقطع رزقي، كي أستطيع دفع إيجار شقتي وكي ألبس قميصا جديدا، وكي أستخدم سيارة الأجرة بدلاً من الحافلة، كتمتها بجوفي وكبر الهم مع قدر السكوت، نبت همي كشجرة توغلت في النمو، شجرة شريرة أطاحت بحريتي، لقد انطفأت بهيبة كذابة، وانسحقت هويتي كلّما كتبت مقالا جديدا وأقنعني بعدم النشر، عرفت أني أتواطأ مع أبو العبد وغيره من الفاسدين، كان يجب أن أقول هذه الكلمة له منذ عامٍ أو عامين، ولا أنظر لراتب آخر الشهر، تباً للنقود، وللوظيفة، وللعبودية، هكذا يجب، أن أتحرر من قيدي، وأن أبصق بوجه كل من جيّر البلاد لحكم الشيطان، من زرع في أثيرها البغاء، ويل لهؤلاء، الذين اقتلعوا ما تبقى من الكرامة وزرعوا محلها الخبث والبغضاء ويلهم، واللعنة عليهم.

الدرجة الثالثة: امرأة من حجر

أعالج مقبض الباب بيدي..

المقبض منفرج لا يتيح لي أن أديره، لكنني أعرف السر جيداً، المفتاح يجب أن يكون بمنتصف "الغالة" وأميّل القفل قليلاً وينفتح الباب المفضي إلى غرفتي، أعرف رائحتها، هي رائحتي، ورائحة بقايا طعام بائت، وملابس لم تغسل منذ رحيل أمي، أعرف هذه الرائحة وأحبها، سأغني قليلا، سأحتفي بغرفتي التي تضمني كل مساء، بيت الدرج، درجي، بيتي، ملاذي الأخير، سأنام على الأرض لأجلها، سأقبل أرضها، هي آخر ما تبقى لديّ، ماذا أغني لك، أغنية عن الأرض والدحنون، ومساءات كثيرة عشتها معك، تقلبت فوقك وعشت مغامرة عاشق ثري، لا يأبه بالفقراء البؤساء، هم بؤساء حقّا، لا يهمني رأيهم ولا آبه بجوعهم، عاشق ماجن أنا! سأتخذ من الجدار زوجة

لي، وأضاجعها كل ليلة، ما حاجتي لكل نساء الأرض، فالمرأة فكرة لا غير وجسد يبلى وحب يستنزف، وهي عمر شقي ووهم نعيشه ونحبه ثم نكرهه وننقلب عليه، ثم نندم ونندب حظنا على الزواج ونبكي.

امرأتي من حجر إسمنتي لا يهرم أو يموت، من يستطيع إيقافي! فهي لي تماما، امرأة الحجر، يافعة، مغناج وتعرف سري، سأرقد فوق صدرها، سألثم جسدها وأقتلع شهوتي من جوفها، أجل، شهوتي التي خبأتها منذ دهور، سأفرغ بها حزني وفرحي وآهاتي، امرأتي التي لا أسمع لها صوتاً، لكنها تستمع إليَّ دائماً، سأغني لها أغنية عن الصمت والحب وعشق المارقين والقاعدين، سأكون لها كطير (فينيق) حط على رأس جبل، وأغرف من جوفها الحب والغيرة.

من أين لي بهذه الكلمات! أحاول أن أعصر رأسي، من قال لي هذا الكلام؟ أتكون أمي! لا، فهي لا تتفوه بوجود أبي، لربما هو من قالها، فهو لم يحبها قط، كان يضربها، يلعن الآلهة علناً إنْ هي أخطأت في إعداد عشائِه، أو إنْ تأخرت عنه، كان يفور من الغضب عند قدومها، يجرحها بكلام لا يليق، يبصق أحياناً خلفها، لا يعجبه كلامها ولا تغريه حنيتها. أمي، تكتم الصوت والسر وتفرغه في البكاء، أمي جدار إسمنتي، تشبه زوجتي، كلاهما امرأة، تسمع جيداً ولكن صوتها لا يعلو، هل صارت أمي حجراً، يا الله! ماذا فعلت بأمي؟ هل حكمت عليها أن تصبح تمثالاً لا ينطق، هل أكلت القطة الزهرية

لسان أمي، قولي شيئاً، اصرخي بوجه هذا الظالم، أوسعيه شتماً ولتسحق الجبال رأسه، أمي، بوجهها الباكي، تقوم مستسلمة لجبروت أبي، تدعو له بالهداية، فأصاب بالغيظ، لِمَ تدعين الله له، هل تحبينه؟ هل تغريك قسوته؟ من يشرح لي كيف نحب من يقسو علينا، من ينتزعون فرحتنا، أمي، تكلمي، أرجوك، تنفسي، الفظي همك، وتبتسم أمي، وتغرورق عيناها بالدموع، لكنها لا تتكلم.

أهمس لزوجتي التي برد جسدها، أداعب خشونة جلدها الذي ينفرش أمامي، هل تريدين المزيد من ذلك الشيء؟ أضحك بصوت عالٍ، أحس بفحولتي، أشعر بأني مسيطر عليك في هذه اللحظة، كيف تشعرين أنت؟ ولا تنطق، انطقي يا فتاتي ولو بهمسة واحدة، أود أنْ أسمع صوتك الشجي، لكن زوجتي لا تعيرني انتباهاً، أصاب بوحدة تعصر قلبي، أود أن أستعيد بعض الذكريات لكن عقلي لا يتحرك، واجم لا يهتز، هنالك برزخ لا أستطيع تخطيه، أتعلق بأسفل الحائط، أحاول الصعود، تنزلق قدمي، أعاود المحاولة، علّي أتسلق ذلك الحاجز، أن أتذكر، أن أعيد التوازن. هل تجدي؟ هي لم تُجدِ يوما، فكيف الآن؟

الدرجة الرابعة: زارني طيفها

يدور في ذهني أني بلا وطن...

بلا هوية، وأن أغنية قصيرة من بضع كلمات هي ملاذي، وأن مجموعة قطط تلهو بشارع منسي هم أهلي، وأن عصفوراً طليقاً فوق سطح العمارة هو صديقي الوحيد، يدور في رأسي أني انتزعت من همّ الأنا، وأفرغت حزني في غيمة ستتلاشي عند أول هطول للمطر، ينتابني هذا الإحساس صباحاً، عندما أتشبث بسيجارتي، شعور بأني لا أُرى، نكرة غير مفهومة وسط الزحام وسطر في كتاب لن يكتمل، وبأن الناس غابوا والأحبة ماتوا، فارقوا هذه الحياة بقصد الفراق فقط، هل يختار الميت قضاءَه؟ هل يشعر بالموت قبل حدوثه، أيودع من يحبهم بإشارات مبطنة، أيسعده أن يترك الغير مفجوعاً بفقده، ويختفي، ونبكي عليه، ونرثيه، ويتحلل جسده وتغيب ذكراه، أين

تختفي روحه، أين تحتجب؟ وكيف أؤمن بأن هذه الروح غير كامنة في مكان ما.

أشعر بأن هاجساً غريباً يجعلني أرى أرواح الموتى، برودة تلفّني كلما فكرت بهذه الفكرة، فأجزع من فوق مكتبي وأشرب الماء، أحس بجفاف في حلقي، هل سأموت في هذه اللحظة؟ هل سيأخذ روحي الله عنوة عني، ويذيقني عذاباً كنت أخاف منه، أنظر حولي، وأنتفض لأمشي في أنحاء غرفتي، أقنع نفسي بأن رجليَّ لا تزال تتحرك، وأن قلبي لا يزال ينبض، كيف يكون الموت؟ كيف يستقبل الميت رهبته، هل يجزع، هل هو مؤلم، أيرتعش جسدي أولا أم يهتز قلبي، وإذا كنت بلا عقل، هل سيكون الأمر ذاته، أيكون موت المجنون مثل موت العاقل، لا يمكن أن يكون كذلك، فالجنون حالة تنسيك الألم والخوف والرهبة، فإذا كان المجنون لا يخاف ولا يرهب أحدا فكيف يخاف الموت؟

لقد مر طيف أمي الآن، هو طيفها بذاته، لعلها تود الاطمئنان علي، لعلها استوحشت في غيابها ومرت لتلقي التحية، لم لا تجلسين قليلاً يا أمي! سأعدّ الشاي لك، وأقوم حيث هو المطبخ ويلاحقني طيفها، هل تشعرين بملل؟ أبتسم لها من غير أنْ ألتفت لطيفها، وتهز رأسها، لقد اشتقت إليك يا بني، صحتك لا تبدو جيدة، عليك أن تأكل جيداً وأن تتخذ خليلة لك، زوجة،

تقول بحزن، أدرك ذلك يا أمي، إنّما هو ضغط العمل وقلة النقود، سأفعل بلا شك، كوني مطمئنة، فيبتسم طيفها ويغلي الشاي ولا تشربه.

أمي، هل ترين خديجة؟ أختي التي لم تتزوج من تحب، إذا رأيتها بلغيها سلامي، واطلبي منها أن تمر يوماً، أنا متأكد أنها مشغولة كما هي عادتها، ربما تكون قد أنجبت مولوداً الآن، ربما أسمته أحمد، قولي لها أيضا أنني ما زلت أحبها، وأن صورتها ما تزال معلقة فوق جدار غرفتي، بلغيها أن حياتي لم تتغير وأنني أحب فتاة في مثل عمرها، بلغيها يا أمي، بلغيها السلام.

تغيب أمي، ترتفع روحها بتلقائية جميلة، وأشعر بارتخاء في عضلاتي، أحس بسُكرٍ في رأسي، ودواخ يعرقل فكري فلا أستطيع القيام من مجلسي، يرتفع طيفها، ولا أود ذلك، أناجيها، ابقي قليلاً، فقد ترتاح روحك، إلى أين تذهبين، هل أستطيع الذهاب معك، ولا أعود أراها، تنتشر رائحتها في الغرفة، كيف سأفضح سري للغير، كيف سأشرح لهم أن أمي تطير كعصفور بري، تلبس جسداً جديداً وتنتقل بسرعة الصوت، أمي بأجنحة ملونة ومنقار يرتشف المياه بحنو، صغيرة بحجم يد، وقلبها ما يزال كما هو، تخاف على عشها، ترعى صغارها، وتدفئهم.

الدرجة الخامسة: لا حول ولا قوة إلا بالله

أستعيد توازني..

لقد أفقدتني المرأة قوتي، أنهكت طاقة كنت قد ادخرتها، لا أكاد أحس برجلي، أود أن أدخن سيجارة، هل تدخنين معي؟ سأخلع ملابسي، حرام عليكَ! لم تبق لي أي سيجارة، كيف سأنام الآن، سأخرج لجلب السجائر، أريد أن أدخن بصوت عالٍ، سأطلب من صاحب الخمارة سيجارتين، وأهديك واحدة، سأعود بعد قليل، ها، لن أُقفل الباب كي لا تحسّي بالوحدة، دعي ملابسك جانباً، ابقي عارية كما أنت، انتظريني.

صاحب الخمارة يسكن قريبا من هنا، أظنه يسكن قريباً، أنا أسير في اتجاه خاطئ، لا إنّه الاتجاه الصحيح، هنا تبولت البارحة وضحكت من المارة ثم هربت، وهناك دفنت القط السمين الذي مات منذ عهد قريب، وفي هذا

المكان تحديدا أكلت حلوى العيد، وسط البلد وفي آخر الشارع المحاذي لمسجد الحسين، المسجد الذي أقابل فيه الناس كل يوم، هو المسجد الحسيني، يا بني، تقول أمي لي، الياء، لماذا لا تحب حرف الياء، هو الحسين يا أمي، الحسين فقط، آه، كم أتذكر أمي داخل المسجد، كلما دخلته وددت البقاء أكثر، لكن الرجل ذا اللحية البيضاء ينهرني، يدفعني بنزق، يشد قميصي كي أخرج.

- امشِ وله، امشِ، أما واحد مجنون.

يقول أبو اللحية إنني مجنون، ولكنه هو المجنون، أرد عليه بأنّي في بيت الله وأريد أن أطلبه طلباً صغيراً، أريد أن أرى أمي، هل هذا شيء مستحيل؟ لقد أخذها عنده، هل تنكر ذلك؟

ولا ينكر، لكنه يدعو الله أن يأخذني عنده أيضا ثم يدفعني خارج المسجد عنوة.

- أريد أن يأخذني الله عنده، قل له ذلك، ألا تراه، أنا لم أره طيلة هذه السنين، وبرغم أني أزور المسجد يوما بعد يوم، إلا أنني لم ألمحه ولا مرة واحدة، ألا يزور بيته قط! أريد رؤيته ولو لمرة واحدة! هل هذا ممكن؟

أتمطّى في شوارع البلد قريبا من سينما زهران، الوقت ليل وذات الرائحة العفنة تنسل إلى أنفي، رائحة جوف الأرض المضمخ بفضلات من مروا من هنا، هي ذاتها رائحتي. القطط وحدها تعرف هذه الرائحة وتموء لدى

اقترابي، أعرف كل قطط هذا الشارع، أتفقّدها كل مساء ولا أخطئ إحداها، في ذات مرة، غاب أحد القطط، هو يأكل بشراهة دائما، سمين هو ويميزه أنفه عن باقي القطط، غاب مثل أمي ولم يأت بعدها، حاولت أن أسأل باقي القطط عنه لكنني فهمت أنه رحل عند الله أيضا، كيف رحل؟ هل يركب سيارة (السرفيس) لآخر الدنيا ويغيب فجأة؟ أسأل صاحب (السرفيس)، لكنه لا يجيب وتجيبني امرأة بمثل طول أمي: هم يرحلون بروحهم يا بني، وأسأل مرة أخرى شبيهة أمي الطاعنة بالسن عن الطريق الذي تسلكه الروح للذهاب إلى الله وهل ينفع الذهاب إليه عن طريق سيارة السرفيس، فتضحك المرأة ويتجهم سائق السرفيس، (عموه انت بتكفر)، يقول بنزق، وتقول المرأة: لا يا ولدي، لا ينفع ذلك، إذن سأستخدم سيارة الأجرة، أجل، السيارة صفراء اللون، وسأدفع كل ما لدي للقاء أمي، لكن المرأة المكتنزة تهز رأسها وتقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وأعيد جملتها مراراً وأمضي، لا حول ولا قوة، وكلما صادفت أحداً في الشارع، أعلمه بهذه الحقيقة، فيمتعض بعضهم ويزيحني البعض الآخر عن طريقه، ما الذي تعنيه هذه الكلمة لهم، ماذا الذي تغيظه بهم، هل هي شتيمة، وأرددها مراراً: لا حول ولا قوة إلا بالله، فيوقفني شيخ كبير، يربت فوق رأسي، ويلاطفني بابتسامة صفراوية، ماذا، هل شتمتك؟ أقول له، ويبتسم مرة أخرى، هل تعنيك الجملة أنت أيضاً، هي الآن جواب على غياب أمي،

هل تعرف أنت السرّ أيضاً؟ أيعجبك حالي، عيناي، فمي، لحيتي التي استطالت، ملابسي الرثه، جلدي الذي لا يطيق الماء، أنفي الذي يعشق الروائح، هل تود معرفة ماذا يخبِّئ هذا الكائن خلف خلجات صدره، أخبئ أسئلة لم يجب عنها أحدٌ، هل لديك إجابة لسؤالي؟

يرتعد الشيخ، لا يصدق ما قلته له، يهذي ببعض كلمات غير مفهومة، أسمعه يقول: أنت لست مجنوناً، أنت شيخ العاقلين، ينادي أحدهم: (أبو صدقي، تعال، شوف شو لقيت)، ويهرع إليه صديقه بجدية، يتهامسان وينظر أبو صدقي إلي، يقول: (أبو سهم، هذا الشب ابن أبو أحمد الدهين، خلف أبو شامة، تعرفه اللي أمه انتحرت، تتذكره، الصحفي اللي انجن)، فيهز كلاهما رأسه بأسف، لكن أحداً منهم لا يجيب عن أي سؤال سألته، هل أصرخ كي يقطعا كلامهما، أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فيتنبه الرجلان ويخرج أبو صدقي بضعة قروش من جيبه ويضعها بيدي، ويرددان معا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

الدرجة السادسة: العمر قصير

نغيب بين المباني..

يغني مؤنس ولا أغني معه، يحاول استدراجي لموسيقى أحبها، وأعرف قصده، يقول لي: أتعرف يا أحمد، شخصيتك رزينة أكثر مما ينبغي، جدّيتك ستقتلك يوما ما، ستصيبك بجنون، ثم يضحك ويغني ولا أضحك إنما تزداد جدية حديثي معه، أقول: ما الذي تريدني أن أفعله؟ أن أرقص، لا أستطيع، ولا يعني عدم الرقص أنّي لا أستمتع بالحياة، الحياة في المضمون وليست بالشكل. لا يعجبه ما أقول ويقوم من مجلسه ويرقص مثل (زوربا اليوناني[1])، يخبط رجليه بالأرض، ثم يقفز وتدمع عيناه وعيناي.

---

(1) رواية للكاتب اليوناني نيكوس كازانتزاكيس.

تسوقنا أرجلنا لشقة مؤنس في (جبل اللويبدة)، كم أحب هذا الجبل، وكم أود العيش فيه، يحاول مؤنس إقناعي بالانتقال للسكن معه، لكنني أرفض بحجة أنني لا أطيق رائحة الألوان التي يستخدمها بالرسم، تصيبني بالاختناق، أقول له لكنه لا يصدقني، ويلتقط إحدى اللوحات ويقربها من أنفي، يقول: اشتم عبق الحياة يا أخي، اخرج من قمقمك، ما الذي يدعوك إلى الانتظار!

- أنا لا أنتظر، إنّما أستمتع باللحظة بفعل عقلي صرف، أترنّم على اللذة بصمت. أقول هازئاً.

العمر قصير يا أحمد! يعيد مؤنس هذه الجملة ألف مرة باليوم على مسامعي، يا أخي فهمنا نظريتك، وعرفنا انو العمر قصير، أقول له، وهو يقف على رجل واحدة، ما الذي يحاول فعله في هذه اللحظة، هل يحاول الرقص؟ أجل، هو يرقص للقادم الذي لم يأت بعد، للعمر الذي ينتظرنا ولا نراه، لأفضل اللحظات التي لم نعشها، للكلام الذي لم يُقَلْ، وللحب الذي لم نعشه يوماً، يرقص أمام انكسارات البشر وهموم الذين تركوا أوطانهم، هو يرقص حزيناً: هل أنت حزين يا مؤنس، أهمس، فيتوقف عن الرقص، وأشعر بغمرة حزن تجرفني، يقترب من إحدى لوحاته، ثم يتلمس نتوءات ألوانها، رسم لعدة أشخاص ينتظرون، وشجرة تظلل الجميع، يرفع اللوحة عالياً، يتمادى في رفعها، هي حياتنا يا أحمد، هي التي تجعل هؤلاء الأشخاص

ينتظرون دورهم واحداً تلو الآخر، بؤساء، ملاعين، لا يعون ما ينتظرهم، فالعقل وإنْ ارتقى، فهو يحب الحصار، أجل، نحب الحصار، ونحب أن نلعب دور الضحية، ونحب أنصاف الحلول، نفضل أن يعترينا الذهول في كل شيء، أن تتقول الأفواه عنا، دعنا من ذلك ولنكن جميلين. قم يا أخي، حيّ على الصعلكة.

أشعر بصداع، ودوار خفيف، أعتذر عن الخروج، لكن مؤنس يُصرّ على ذلك، يقول: هنالك الكثير في انتظارنا، هيا يا أخي، ولكن الصداع في أسفل الرأس لا يدعني وشأني، والجو بارد في الخارج، أرى أن نؤجل ذلك، أقول، ويحتد مؤنس: (بدك تطلع، خاوه، قوم)، ويشدني من يدي.

أستند من جلستي، ورأسي دولاب مضطرب بالهواء، نمشي في شوارع عمان، صعاليك تدفئنا معاطف لا تدرأ برد كانون. عمان، مدينة غريبة، نحرث شوارعها كل يوم، وفي كل مرة جديدة نحس بأنها المرة الأولى التي نسير بها.

عمان...

امرأة تكرهها بعد المضاجعة لكنك ما تلبث أن تشتاق إليها، تلعنها عند مغادرة الحدود، لكنك تبكي بعد يوم على فراقها، عمان، أغنية تحاول نسيان لحنها، وعندما تنساه، تحس بإحباط غريب وتود غناءَها مرة ثانية.

تموء قطة من خلفنا، يكتنف في رأسي ألف سؤال كل يوم، ولا أحد يجيب، ما الذي حلَّ بأهل عمان؟ أنظر إلى وجوههم، أحسّ ببله في حدقات عيونهم ويأس وبؤس وحنين إلى قادم لا أظن أنّه سيأتي، هذي عمان بأزقّتها وأبنيتها، تعرجات ودهاليز مررت بها آلاف المرات، لم تتغير لكن أهلها تغيروا، هل تعرف عمان بأن أهلها قد تغيروا، يملأها البكاء، ودموع تقف عند محجر العين.

عمان..

أراك جيداً، وأحسّ بثقل جسدك الحاني، تتأوهين مراراً ولا أسمع شكوى منك، تعاتبين أطفالك، بدون قسوة، وتغيبين في الليل مثل أمي تماماً، عمان أمي، كلاهما واحد، وأحس بهذا النبض في جدران أبنيتها، وفوق أغصان أشجارها، وفي حاناتها ومقاهيها، وفي تنفس أبخرتها، وقذارة قمامتها، أحسّ بلهاث سماوي فوق أرصفتها، ولعنة حب تصيب من لعنها، أشعر بهذا الوجد الذي يُعشّش في صدور أهلها حيناً، وفي حقدهم عليها أحياناً أخرى، وهي إذ تقوم، تمسح دموعهم وتنيمهم لكنها لا تنام.

عمان، يا قطتي الزهرية، لا تبتعدي كثيراً، فقلبي الصغير لا يحتمل غير موائك.

نعرج على أحد المطاعم في إحدى زوايا وسط البلد، نطلب (قلاية بندورة باللحم)، وخبز وكميات من البصل، نأكل ونضحك فيختفي الصداع،

يدعي مؤنس بأن (القلايات) ألذ من الكفتة، ونختلف وينشب بيننا صراع لا يحلّه إلا قدوم صديقنا عامر، ويتفق عامر معي بأن للكفتة طعم لا يضاهى.

نخرج مكبلين بطعم (القلاية) إلى إحدى المقاهي القريبة، مقهى (السنترال)، أو المركزي، لا أعرف لماذا احتفظ هذا المقهى باسمه (الانجليزي) دون كل المقاهي الأخرى، فكل مقاهي عمان تحمل أسماءً عربية، الجامعة العربية، بلاط الشهداء وغيره، إلا هذا المقهى بقي اسمه أجنبياً، ومع هذا فلم أسمع أحداً ينادي هذا المقهى باسمه العربي، كنت أمازح عامراً ذات مرةً حول موقع لقائنا، قلت له: سيكون لقاؤنا بمقهى المركزي، فتأخر عامر كثيرا عن الوقت المحدد، وبعد عدة اتصالات أدركنا أنه يبحث عن المقهى حول البنك المركزي بشارع السلط.

يطلب مؤنس (نارجيلته) ويغادر عامر المكان منتشياً بدعوة من حبيبته، يجلس مؤنس قبالتي منشغلا بنار (النارجيلة)، لا أذكر أني رأيت مؤنساً غير منشغل بشيء، وكل شيء لديه مهم، يحيط أتفه الأمور بعناية مركزه، ويشرح عنها كسرٍ سماوي. يقول مؤنس: (النارجيلة) كالأنثى، لا بد من مراعاتها لتستمتع بها، ثم يحشر رأس (النارجيلة) بيده، يشهق نفساً عميقاً: هل أطلب لك واحده، يقول فأؤشر له بإصبعي بالنفي، لكنه يصرّ عليَّ بأن يطلب واحده فأوافقه.

الدرجة السابعة: دجاج أحمر

بيت صاحب الخمارة أمامي.

هو لا يسمع غنائي في هذه الساعة، أيعقل أن يكون نائماً، سأرفع صوتي ليفتح لي الخمارة، وأغني له أغنية أحبها: (مسعد يا تنور[2]، يا أبو سعده، مسعد يا سعده)، وأسمع أصواتاً تعلو فوق صوتي، هل يغنون معي؟ ويخرج أحدهم رأسه، يفرك أبو سعده عينيه مدعياً النوم ثم يقول:

- ولك سحنون، شو بدك، الوقت نص ليل.

أبو سعده يلبس شروالاً قصيراً ولا يخفي أعلى جسده، (يا عيبه)، لا يلبس أي شيء، يا عيبك يا أبو سعده، أقول له، أنظر إليه، شعره كث فوق صدره، لا أدري كيف يطيق النوم وسط كل هذا الشعر، وهو لا يخجل من

(2) أغنية شعبية من بلاد الشام.

بنطاله القصير، أنادي عليه بأني وزوجتي نريد سيجارتين، يبرطم بأحرف لا أفهمها، يعلو صراخه بأن الخمّارة مغلقة، وينهرني بالابتعاد، لكنني أستغرب قسوته وعدم فهمه لطلبي، كيف سأضاجع امرأتي من دون سجائر! (يا أبو سعده، حن عليّ)، أقول له، يصرخ بي مرة أخرى ضاحكا: (يهد حيلك وله سحنون، هلكتها لمرتك)، ثم ينادي على أحدهم فوق الشرفة: (يا مرة ارمي سيجارتين، خلينا ننام بالهليلة النحسة).

(نحسة)، أذكر هذه الكلمة جيدا، كان والدي يقولها لأمي، وتبكي بعدها، كانت تبكي كثيراً هذه (النحسة)، هل أنت نحسة يا أمي، أقول لها، وتضحك كثيرا ثم تجيب: يبدو ذلك يا بني، أنا نحسة منذ أن عرفت والدك، وهذا سر سعادتي؟ أمي إذا نحسة وسعيدة في نفس الوقت، وتفيض بحنان لي، وتعطيني حلوى في كل مرة أضمها، وتطبخ دجاجا (أحمر)، وتعدّل أمي كلامي: لونه ليس أحمر، لكنه (مُحمّر)، هو مُحمّر، بعدين معك، تبتسم أمي وتشير إلى طبق الدجاج، هو هكذا، قل محمّر ولا أقتنع وأقول: إنه زهري يا أمي، وتضحك أمي: بني، لونه بني، أنت تخلط الألوان! لكنني أحبه زهرياً، هو أجمل وألذ عندما يكون زهرياً.

كيف سأقنع الجميع بأن اللون مجرد خداع بصري نغيره إذا شئنا إلى أي لون نريد، هو مجرد انعكاس في ذهنك لا أكثر، أنا فنان في رسم الألوان، أختار الألوان التي أحبها، زهري، أصفر، أخضر، وأصبغ بها وجوه البشر

الداكنة، أمرر فرشاتي فوق بيوت الحجر المصمتة فتصبح بيضاء، وأدهن جبال عمان لتصبح خضراء، والصحراء لتفترش بورود حمراء، أسرق ألوان أبي من بيت الدرج، يخبئها عني بخبث، يُعنّف أمي مراراً إذا اكتشف أنني اختلست شيئاً منها من وراء ظهره، كان يعد براميل (الدهان) كل يوم أمامنا، يوقفني أنا وأخواتي الست، يقول: (أمنشن)، أبيض، أحمر، ونردد سوية: خمسة، ويعيد، (زيّاتي)، أبيض، ونعلو بصوتنا خائفين: سبعة براميل، يطلق سراحنا بعد ذلك مُهدداً أنَّ من يعبث بهذه الألوان سيعاقب غرقاً في برميل الغسيل، وأعبث دائما ببراميله السخيفة.

تصيبني حالة من اللاجدوى من الانصياع لقراراته، أشعر بأنه على قدر قسوته إلا أنه ضعيف أمامي، هل يخافني أبي، كان ينظر دائما إلى الأرض عندما يهّم بضربي، يحاول إشغال نفسه كي لا ينظر لعينيّ، انظر أيها القاسي إلى حدقة عيني، هل ترى تلك الطفولة التي أضعتها بقساوة قلبك، هل تدرك كم كبرت المدينة بعيني وملأت جوفي غيظاً، لا أخافك أبدا، سأرسم ما شئت بألوانك، سأمزق صمت المدينة بفرشاتي الحيّة، سأجعل القطط تموء على لوحتي التي أرسمها، تعويذة تبقى واجمة بوجه الذين خلت قلوبهم من الرحمة، للذين فرغت عقولهم من فكرة المحبة، سأرسم أدراج المدينة القديمة التي سقطتُ من فوقها ألف مرة لكنها رحمتني، وأزيّن (الزواريب) التي هربت إليها منك وخبأتني بعيدا عن قبضتك، سألون الأشجار المغبرة على

الأرصفة والمزروعة من دون قصد في أرذل الأماكن، وأخط أرجلاً طويلة للحمام الرمادي الذي يسكن فوق الأسطح المهملة، سأرسم، رغماً عنك، ورغماً عن براميلك التي أخطئ في عدّها كل يوم، سأرسم كما يحلو لي وليكن ما يكون.

الدرجة الثامنة: درجات حنونة

صوت مؤنس يختلط بصوت الموسيقى

يرقص على لحن فيروز، صغر قامته يعطيه تميزاً برقصته، من أين تندفع هذه المشاعر! هل أستطيع النظر إلى داخلك، أسأله، فيضحك، ويفتح أزرار قميصه لأنظر إلى حيث قلبه، لا يوجد شيء غير الشعر، نضحك سويه، كلما ازداد ضحكنا رأيت الدموع تتسلل إلى عينيه، هذا الرجل لديه قدرة على إضحاكي وإبكائي في آن واحد، يعالج خللاً في داخلي ويرتقه، لهذا أنا صديقك، يقول هو، لنخرج إلى جبل عمان للتسلق، ثم يرفع صوته بجملة كنت قد كتبتها في إحدى مقالاتي: (أود تسلق الدرجات، أود أن أرقص فوقها وأتعثر وربما ينكسر لي ضلعٌ، لا يهم، سأقوم وأرقص مرة أخرى،

سأداعب الحجارة وأقبلها، سيلتئم جرحي ويترك أثراً من عمان، وكلما تحسسته سيقشعر جسدي وأحن لها، عمان، كم من العمر نحتاج لنفهمك وكم من العطاء سيشفع لنا جحودنا)، ألم تقل ذلك يا أحمد؟ أقول نعم، فيقول: إذن قم يا رجل فلا وقت للجلوس!

أجل قلتها، وأحسست بها كلمة كلمة وعرفت درجات عمان درجه درجة، حفظتها عن ظهر قلب، حتى الدرجات المكسورة، أحببتها، أحس بصلة تربطني بها، هنا مرّوا من فوقها، بصمات أرجلهم حفرت ذكراهم، وكتبت ثقل أجسادهم، طفل يلعب، شيخ يتكئ، امرأه بجوفها قادم سيأتي عما قريب، عاشق فقد بوصلته.

الدرجات أصدق بناء تستطيع اقتفاءه بعمان، حنونة، عصية، تحمل شجون من مرّوا عليها برفق وتهديهم سلاماً، توصلهم إلى طمأنينة يرجونها وتشعرهم بحنو، الدرجات، مفتاح عمان، كلمة السرّ، أحجية الضائعين، طالت أم قصرت، كلّها تفضي إلى قصص في كل بيت، القصة تلو القصة، تداعبها تلك الدرجات وتبثها كما هي، علكم تقرؤون حروف عمان، علكم تطأون درجاتها وتعرفون السرّ.

كلما صعدت درجة فاض ما بقلبي من حب، خلتني أطير، يضحك مؤنس، ثم يقول لي بأنني ماهرٌ بالحب، وإنني أصنف نسائي درجات، وأنَّ سحر في أعلى درجة، لا أفهم هذا الرجل، لكنه يرسم الدرجات كثيراً، هو يرسمها وأنا أحبها، هو يرقص وأنا أكتب عن الرقص، هو يغني وأنا أنتشي، يتهمني مؤنس بالكسل، ينعتني بأني أحصد الأشياء بصبر دون عناء، يقول: أنا الفعل وأنت الكلمة، معظم مقالاتك وإبداعك نابع من تجاربي، أنا ملهمك وليست سحر، فأهزّه بيدي من كتفه ناهراً أن يتوقف، ويبتعد ثم يقهقه، أتظن أني أغار عليك منها، هي صديقتي أيضا، فقط سأطلب منها أنْ تطلق سراحك لبعض الوقت، كنا نعاتب عامراً على وجده وهيامه حتى وقعت أنت بالحب، قل لي: هل العشق جميل، فأهز رأسي وتغرورق عيناي فوق درجة مستطيلة: جميل، هذه كلمة لا تكفي يا مؤنس، قل أكثر، أطلق خيالك، ويرقص على وقع كلمة العشق، يطير كعصفور في سماء عمان، يتحدّى بأنه لن يقع في الحب مطلقاً، وأن الفتاة التي يحبها لم تولد بعد.

نصعد باتجاه جبل عمان، تعتريني نشوة كلما صعدت إلى قمة المدينة، من قاعها يبدأ الدرج ولا ينتهي إلا في حانة جديدة، نرمي جسدينا المتعبين فوق كراسي من خشب، نلهث كأننا كهلان سطر فوق وجهيهما الوجد خارطة

للمدينة القديمة، ويقول مؤنس جملته: أثر (النيكوتين)، فضائله تبين عند التعب وهي لا تعد، ويأتي النادل كقط يبحث عن فريسة.

- (نارجيلة يا أفندم)، فيبتسم مؤنس، (خلينا شوي يا عبده، رح نموت من التعب).

لكن عبده يتربص بنا، يحوم حول الطاولة كمن وجد ضالته.

- استاز مؤنس، أجيب الأراجيل، ويؤشر له مؤنس برقم اثنان، ويهرع عبده لإحضار النراجيل.

- أتود الشرب، أتوق له شخصياً. يقول مؤنس.

- أجل، لم لا، أشعر بأنني سكران قبل الشرب، هل تستطيع حملي بعد الانتهاء، أظن أن ظهرك سينقسم بعدها.

- سأطلب لك مشروباً خفيفاً اليوم، يبدو أنك تضمر لي مفاجأة خطيرة في نهاية السهرة. أضحك حتى تنهمر الدموع من عيني.

- هل تعرف، أود أن أدع عقلي في هذه الحانة، أقسم أنني أود تركه فوق إحدى الكراسي المهملة، وليعبث به عبده كما يشاء، أو لربما أخذه صاحب الحانة وخلطه مع قلاية لذيذه.

- بالله عليك اصمت، أود أن أطلب طعاما، اسكت!

- في يوم ما، سأنتزعه عنوه، ألم يكتشفوا شرابا يُبخر العقل من أساسه، أن أستيقظ بدون عقل، أنْ أكون مفرغا من أي تفكير، أود أنْ أعطله لبضع ساعات فقط، أن أطفئ محركه ليوم واحد، ولتنتهِ بعدها الحياة.

ينبت عبده أمامنا حاملا نرجيلتين تختلط رائحتهما بالجوافة والليمون، يتذمر مؤنس كعادته على اشتعال الفحم، منذ أكثر من عشرة أعوام وملاحظته لا تتغير، (الفحم مش زابط)، متى سيزبط الفحم يا مؤنس؟ أقول له مناكفاً فيبتسم بخبث، ويرد بدهاء: لما يجينا رئيس حكومة (منيح)، فأقتنع حينها أنها لن (تزبط) قط.

الدرجة التاسعة: الرجل ذو الرقبة الطويلة

يعطيني ذو الشروال القصير السيجارتين على عجل ثم يمضي مهرولاً: (يا الله روح، سلم على مرتك ودخنوا وناموا، روح يا أخي قردنتنا).

هو يخفي تحت شرواله شيئاً، أراه بوضوح تام، هل تكون مفاتيح غرفتي؟ لربما أضعتها مرة أخرى، أتذكر جيبي الصغير وأفتش مجدداً، هي غير موجودة، هل سرق الرجل مفاتيحي، كيف سأدخل غرفتي مرة أخرى، التقط السجائر، ثم أصرخ بصوت عال: أعطني مفاتيحي، فيخرج رأسه من فوق البلكون وتخرج من جانبه امرأة عارية، ها، إنهم لا يلبسون شيئاً، (يا عيبهم، يا ويلهم من الله...).

- (يا ويلكو من الله، مشلحين). أصرخ بهم.

- (شو بدك، ولك ما ظل عنا سجاير. إقلب). يزمجر الرجل ويتنبه إليه رجال آخرون من باقي الشرفات.

- أريد مفاتيحي المُخبّأة تحت شروالك القصير، أرجوك، لقد رأيتها بأم عيني!

- (يلعن أبو اللي جابك)، يصرخ الرجل ذو الشروال ويفزّ واقفا فتبين عورته أمامي، ثم أهرول هاربا من أمام بيته.

دائما يقولون نفس الجملة، (اللي جابك)، ولا أدري كيف جئت ومن (جابني) ومن كان السبب في وجودي هنا، لربما أبي، لكنه يردد أيضا، يا ابن الحرام، وتنهره أمي قائلة، يا ليتني فعلتها حقاً، فيجن جنونه ويصفع وجهها بيده فيشج شفتها العليا ولا تبكي أمي هذه المرة، أحن عليها وأبكي فوق صدرها، تقول: ليتني خنته في كل لحظة، يا ليتني فعلتها وقت كنت شابة، رشيقة القوام، ليتني خنته، لقد امتص رحيقي، ذلني، رماني جيفة هذا السكير، ليلعنه الله ويبغضه كالشياطين، ويصيح أبي بأمي بعدها، وتبكي وتنتحب هذه المرة، كم تحب هذه المرأة البكاء! أظن أنها أهدرت عمرها بالبكاء ثم رحلت عند الله قبل أوانها.

تقودني رجلاي إلى طريق ضيق بين عمارتين، أتهيأ للرجوع من حيث أتيت، المكان مظلم جداً، وأنا أخاف من الظلام، دائما أتذكر عيني الرجل

الذي يباغت حلمي، هو يفضل الظلام، يعشق أن يخرج في الظلام، أتذكره جيداً، أصابعه طويلة ورجلاه ملتويتان، رأسه لا يتلاءم مع جسده الضخم، رقبته طويلة أيضا، هو يشبه أحد الرؤساء العرب، أجل، لقد رأيت صوره كثيراً، ذلك الرئيس الذي يلبس ربطة عنق حمراء، الرجل الذي قال عنه إمام المسجد بأنه كافر لأنه يقتل الأطفال، كيف يقتل الأطفال، وهل يموت الأطفال حقيقة؟

الرجل ذو الرقبة الطويلة، قاتل الأطفال يدخل دمي، يدخن (نارجيلة) بطعم التفاح، يسند يده على روحي ولا يهتم لأمري قط، أحس بخوف من هذا الشارع الضيق، هل هجرته القطط، أنا لا أستطيع التنفس، أزهق عمري هذا الرجل بلعبته التي لا تنتهي، هل أدخل الشارع الآن، لا، سأعود لزوجتي التي تنتظرني، أجل، لقد تأخرت كثيرا عن لقائها، سأعتذر عن ذلك وأعطيها السيجارة، وندخن ثم ننام. لكنني لا أجد السجائر في جيبي، وأبحث في الجيب الصغير ولا أجدها. سحقاً، الرجل أخذ سجائري، أريد إرجاعها، لكنني لا أستطيع قتله، ها، سأقتله يوما ما، سأغرز سكيناً بكرشه، سأغني له كي يموت، وأبصق عليه، ثم أتبول عليه، أجل سأكون حراً بعدها، وأرقص مع القطط في الليل حتى الصباح.

هل أسلك هذا الطريق أم أستبدله بذاك، هي مغامرة بحد ذاتها، يحتاج الوصول الى غرفتي تخطي برك ماء معكرة ببصاق المارة وآثار خطواتهم، وعدة أدراج وسقوف منحنية، هي حيرة تصيبني دائما من الاتجاهات المتعددة للطرقات، ثم صعود درج من ألف درجة لأصل إلى عمارتي التي أقطن، والولوج إلى غرفتي المثلثة الشكل، لا أستطيع أن أصف كم أحب هذه الغرفة، لا أطيق النوم في غيرها.

أول البارحة، لفت نظري طفل يسكن العمارة، لم أدرِ لمَ لم يضحك عليَّ هذا الطفل، كان وديعاً، قلت له: (شو اسمك)، فلم يجب وترك رجليه للريح، بكى وجاء أبوه غاضباً وجرني من كتفي إلى بواب العمارة، غضب الرجل كثيرا لسبب لا أعرفه، (يا حيوان شو بدك بابني)، ثم يلتفت للبواب الذي أخذ يرتجف: (هو عمل أي يا بيه، سحنون أنت هببت إيه!).

- (يا زلمة، هو إحنا ناقصين العاقلين وما عم نطيقهم، كيف المجانين)، يزمجر الرجل.

- (يا أفندم خلاص، ده ود مسكين).

- (الحيوان بيطّلع بإبني، قلتلك مية مرة، اقلعه من بيت الدرج، ما عم تسمعني)!.

ولا أنطق، أحس بحاجة إلى الضحك، والغناء، وأكره الرجل كثيراً، قامته قصيرة لكنه قوي البنية، يلبس بزّة عسكرية دائماً، أنا أعرفه جيداً، هو يشتم كثيراً، ومعتد بنفسه، في كل مرة، يمر من أمامي أحسه سيبصق علي، (أبو حنفي) دائما يحنو علي، يدرأ شر الناس عني، (أبو حنفي) المصري، رجل كهل، يلف حول رأسه منشفة طويلة، ينادونه أهل العمارة بالصعيدي، قلت له مرة، يا صعيدي، فأعطاني نصف دينار، هو يعرف زوجتي أيضا، كان يحضر لي الطعام كل ليلة، هو يعرف أمي وأبي، وأخواتي اللواتي لا أعرفهن، أبي كان ينهر به دائماً: يا صعيدي، (يعدّمني إياك)، ثم يهرول العم صعيدي لأبي، ويأمره أن يجمع إيجار الشقق جميعها.

- (يا بيه، الحجة أم سعيد، هتتأخر بالدفع).

ويهيج أبي كدابة جرباء، ترفس، تنهق، تستولي على كل الأعشاب، أبي يشتم الصعيدي، والحجة أم سعيد، يلعن الآلهة مراراً، ويلعن أمي أيضا، لا أدري لماذا يلعن أمي في هذه الساعة، أمي التي تغسل له رجليه، وتعد له الفراش، و(الملوخية) يوم الجمعة، كان أبي يحب الملوخية، يصر أنها من طعام الجنّة، يأكل أكثر من صحن، يحتكر كل الأوعية، يَمصُّ الدجاج الزهري، ينتفخ ويشخر، وتغطيه أمي، لماذا تحن عليه، لقد ضربها منذ قليل، وهي

تجلس عند رجليه كحمل وديع، أنا لا أفهم هذه المرأة، أذكر أنّه سجن ذات يوم، هكذا سمعت الصعيدي يخبر أمي:

- يا أم أحمد! الشرطة أخذت المعلم.

أمي تمتعض وتزم فمها، ثم تلطم على خدها، غاب أبي أسبوع بعدها إثر مشاجرة مع أحد المستأجرين، ضربه على رأسه بعصا كبيرة، وطلب من الصعيدي أن يشهد ضد المستأجر، وهدّده بطرده من العمارة إنْ هو شهد ضده.

الدرجة العاشرة: ولدٌ عاق

يفيض الشارع بالعابرين..

تمتلئ قلوبهم أمامنا بهموم مختلفة، يصيبنا ذهول ونحن نراقب وجوههم، نستطيع القراءة جيداً، تجاعيد تخبئ جروحاً، نكسات، قهر مندمل، أنا ومؤنس لا ننبس ببنت شفة، نصمت أمام حزنهم، ننحني أمام عيونهم الدامعة، ينظر إلي مؤنس، ما الذي دهاك؟ أهمس له، لا شيء، يقوم من مجلسه ثم يمسح وجهه بيده كشيخ وقور ويستطرد:

– هؤلاء يحسّون بالحقيقة، يرونها بكامل تفاصيلها، يعشقونها برغم قبحها، هي التي تجعلهم حزانى، مؤلمة وتعتصر القلوب، موجعة، تجرح ولا يشفى من تصيبه، هؤلاء لا يعجبهم الخيال ولا يحلمون، يخافون من الخيال،

يظنون أن تمسكهم بالواقع سيخلصهم، فيمسكون به، ولا يفكرون بغيره فيحزنون.

عندما يشرح مؤنس، يمد يديه، يؤطر كلامه بحركات جسده، أحس لوهلة أنّه سيسقط من فوق كرسيه، فهو يرسم وجوه الناس بيديه، يتلمسها بتفاصيلها، يشمّها ويعصرها ثم يخلطها بشهيقه ويتنفسها ليعيدها زفيراً، لماذا يفعل ذلك؟ هل يخاف من وجود أقنعة فوقها؟

يعتري الشارعَ حزنٌ ناعمٌ برغم الموسيقى التي تصدح في جنباته، أحرك رأس النارجيلة فينبري خيط دخان فوقها، يخف الصداع من رأسي، لقد قبل رئيس التحرير استقالتي اليوم، أحس بطعم الدخان غريباً بفمي، أشعر بحرية ما تداهم جسدي، حرية لمن أسقط حملاً ثقيلاً عن ظهره، أنت الآن صعلوك مجددا، يقول مؤنس ثم يتابع:

- أمنيتي أن أراك في عمل لعام كامل فقط، يا رجل (إركز).

يعرف مؤنس همي اليومي، يعرف أنني لا أطيق الكتابة المؤطرة، فإذا كانت الجريدة بسقوف فسقفي هو السماء.

- سأفتح لك جريدة خاصة، حينها ستكتب بهذا السقف، ولنسمِّها صحيفة اللاسقوف.

أضحك بملء شدقي، مُدركٌ بأنَّ لا جريدة بهذا الاسم وأنّها لن تكون على الأرجح.

يقول مؤنس إنَّني ابن عاق، وإن لأبي حقّاً علي، يستحلفني بالله أنْ أزوره للاطمئنان عنه، وأغيّر الموضوع دائما، ليته يعرف الجرح الذي ما اندمل يوما، لا أود ذلك، أقول بجفاء، فيتجهم مؤنس وينفخ دخان أرجيلته بوجهي:

– متى ستعود إليه، الرجل تجاوز السبعين ولا أحد يعينه، لقد سمعت أنَّ أصدقاءَه يستغلونه ويأخذون النقود منه، حتى العمارة باتت مرهونة للبنوك، يا أحمد يلزم أن تمر وتسلم عليه.

– أرجوك، لا أود التكلم عن هذا الموضوع، سأزوره عندما يموت، أعدك بذلك، لن أستطيع النظر بعيني قاتل أمي، هو من قتلها بعنته وقساوة قلبه، وهو من قتل خديجة أيضاً، وهو من أهدى سلمى لرجل من عمره، وهو من سلمني للشيطان.

– أحمد، يكفي تذمراً، ما فات مات، افتح صفحة جديدة واصفح عنه.

يجثم فوق صدري جبل كامل لا أستطيع تحريكه، يغرز في قلبي كلما تذكرت أمي، همّ يداهمني كلما تذكرت ضحكتها، أو همسها لي، فأتذكر كابوس موتها ثم يظهر شبح قاتلها، كيف سأصفح عنه وهذا الجبل يهد أملي ويحيل قلبي إلى خراب مهمل، مؤنس لن يفهم أنني حاولت أكثر من مرة الاقتراب من عمارة أبي، كنت أقف عند سور العمارة لكنني لا أستطيع دخولها، أذكر أنَّ الصعيدي لمحني في إحدى المرات فامتقع لونه وركض باتجاهي.

- (سي أحمد، أنت لسه عايش، يا رجل والله وحشتنا).

وأسلم عليه بكل رزانة، ولا أنظر إلى وجهه، هو لم يتغير منذ عشر سنوات، ذاتها (الجلابية الرمادية) والكوفية الملفوفة فوق رأسه، لكن وزنه قد انخفض وتجاعيد صغيرة قد لامست عينيه، (كيفك يا عم حنفي)، أقول بذات اللهجة، فيتنهد العم حنفي ويبدأ بالتذمر:

- والله يا بيه، أنا الحمد لله، بس والدك مريض، تعبان قوي، ما تفوت عليه وتكسب رضاه، أترجاك يا سي أحمد لو نص ساعة.

الدرجة الحادية عشرة: بخور

الرائحة زكية في الشقة المقابلة لغرفتي..

لا يفصلني عنها غير درج قصير وباب خشبي بلون زهري، الرائحة تجذبني لباب الشقة، هي ليست رائحة طعام، هي رائحة احتراق، يقول العم أبو حنفي الصعيدي أن (البش مهندس) يحب إشعال البخور، إذن هي رائحة البخور وهي مختلفة عن رائحة (المنسف)، المنسف الذي لا تحب أمي إعداده، تقول عنه دائما، هو طعام المنتحرين ببطء، وأبي يحب المنسف، يأكله بيده اليمنى بشراهة ويخلط معه بصلاً وجرجيراً، يقول: انتحار، أتسمونه هكذا، إذا، أنا منتحر بهذا المنسف، ويتسايل الطعام من كفه وينسكب على الأرض ويمسحه بفمه ثم ينام كما هو ويعلو شخيره.

أريد بخوراً، تسوقني رجلاي إلى شقة (البش مهندس)، أقتعد الأرض، بيت الدرج مظلم، وتصيبني سكينة ثم رعشة وشعور بالغناء، فأغني، أحفظ أغنية عن ظهر قلب: (يمه مواويل الهوى، يمه مواويلي،.....، طعن الخناجر فيّ)[3]..

يتحرك ساكنو البيت، يزداد غنائي مع تخبطهم، ينفتح البيت على مصراعيه، يغشى عيني الضوء، يطل من باب البيت جسد بض، فتاة، تهمس: سحنون، كيفك! الله، هي تعرف اسمي إذن، أغني بهمس كمثل صوتها، (ولا غدر العدو فيّ...).

تبتسم الفتاة وتزداد رائحة البخور مع ابتسامتها، لماذا تبتسم الفتاة، وكيف عرفت اسمي؟

هل أنت جائع، تقول لي ثم تمسك يدي، تعال سأطعمك عشاءً لذيذاً، ادخل.

وأتبعُ رائحة الفتاة التي تختلط برائحة البخور، ويفصل بينهما رائحة بيت الدرج من خلفي.

---

(3) أغنية شعبية.

يبدو المكان غريباً عني، مرتب ولا يوجد فيه أي زوائد، رائحة البخور في كل مكان، أشعر بدغدغة في جسدي، وأحس كم أن صوتي جميل، ها، أتذكر زوجتي، فأحزن، هي تنتظرني: أقول للفتاة فتضحك.

- آه، زوجتك يا سحنون نامت من زمان، تقول الفتاة بوداعة، ثم تقعدني على كرسي مريح.

وتغيب قليلا، ثم تحضر لي طبقاً من اللحم، رائحتها تكمل مثلث الرائحة في أنفي: هي، البخور، ورائحة اللحم وتغيب رائحتي ورائحة زوجتي وبيت الدرج. تخفض قامتها، تناولني اللحم، فيبين صدرها، حبتا رمان، أضحك، فتسألني: لماذا تضحك؟

أقول لها: (يا عيبك، صدرك بيّن). فتبتسم بخجل، وتظهر أسنانها كعقد لؤلؤ ولا يَحمرّ وجهها.

- (بدك تشوفهم)، تتلعثم الفتاة.
- (لا، عيب، بدي أوكل هسا).

تستند الفتاه على الكرسي المقابل لي، تتأملني وأنا أتناول الطعام على عجل، أنا أعشق (الطبيخ)، منذ مدة طويلة لم يدخل في جوفي طعامٌ لذيذٌ.

تنشغل بالنظر إلي وأنا ألتهم اللحم، تلمس شعري فأنتبه ليدها فتبتعد قليلاً، لكنها ما تلبث أنْ تعيدها نحو رقبتي، ما الذي تود اكتشافه هذه الفتاة، إنَّ لي رقبةً ورأساً وعيوناً كباقي البشر، هل أثرت اهتمامها، وتتنهد

الفتاة، ألا تتذكر يا أحمد، تصفح الفتاة عن ثغرها، ألا تذكر أيامنا، وغزلك الرفيع بي، هل أستحق كل هذا منك، أن تتركني وحيدة، أن أسهر على ذكرى رجل تركني بوضح النهار، اختار أن يسلم عقله لمجهول، ألم تستهوِكَ أيامنا، وقُبلي وجسدي، هل أنت فرح بهذه الحياة، أستحلفك بالله أنْ تعود إلى (سحرك)، إلى حبيبتك، عشيقتك، أقبّل رجليك أن تعود ولو ليوم واحد، أنت حتى لا تتذكر اسمي، لقد رجوتك ألف مرة أن تدعك من السياسة والفلسفة وضغطك لعقلك أكثر مما ينبغي، ما الذي حلَّ بك يا صغيري، أتتذكر اسمي، قله أرجوك، سحر...

وأردد اسمها، وفمي ممتلئ بالطعام، فهمت، اسمك سحر، وأنا سحنون، فتذرف دمعه أمامي، أراها وأتذكر أمي، لماذا تبكي سحر مثل أمي، ماذا يعني البكاء، أود تناول طعامي يا سحر، أستحلفك بالله أنْ تدعي البكاء جانباً، ألا يوجد حلّ غير البكاء، ماذا فعلت لك كي تبكي، فأتوقف عن الأكل، وأحسّ بحشرجة في حلقي، أريد أنْ أشرب ماءً، هل يوجد لديكم ماء، فتهرع سحر إلى المطبخ وتحضر الماء، تمد بكأس الماء إلى فمي، تقول، هل يمكن أن أسقيك بيدي، ما الذي تحاول سحر فعله؟ وتسقيني بيدها، أريد المزيد، فتهرول مرة أخرى وتحضر كأساً أكبر، وتمده إليّ، لا، أريد أن أشرب الماء من يدك، توجم قليلا، أحمد، هل أنت هناك، أحس بنكزه في قلبي، من هو أحمد، أقول لها، أشعر بأنني أعرف هذا الأحمد، أحمد يعلو صوتها مرة

أخرى، أرجوك قل لي إنك عدت من جديد، وتترك الماء جانبا ثم تضمني بشدة، أحمد حبيبي، يا الله، لقد غبت كثيراً، وتقبلني فوق جبهتي وعلى خدي، وتبكي، يزداد بكاؤها، ويزيد نبضي، ما الذي حل بقلبي، أشعر برجفة مماثلة لتلك التي أشعر بها مع زوجتي، قشعريرة كتلك التي أحسّها عند خروجي من غرفتي، تقربني أكثر وتغط على صدري بثدييها، تغوص رمانتها اليمنى، قاسية، ما الذي تضعينه بقلبك يا سحر، فتتوقف عن البكاء، هل نسيت جسدي، هل تذكر صدري الذي كنت تقول إنه أجمل صدر، ورقبتي التي تشبهها بشاطئ البحر، وتخلع فستانها، أحس بلهاثها وهي تزيح الملابس من فوق جسدها، أشعر بأنَّ قلبي سينفجر، أتريدين قتلي أيتها المرأة، سأكون عارية أمامك، ربما تستعيد ذاكرتك، تبرطم سحر، فأمسك يدها، أوقفها قليلاً، لا أود مشاهدتك أكثر، أنا لا أطيق ذلك، توقفي أود أن أكمل طعامي.

الدرجة الثانية عشرة: طاقة إيجابية

الدخان يعصر قلبي.

أحسُ ببلغم يصعد لحنجرتي ويسد فمي، ألعب بحلقات الدخان، أنفخها فوق رأسي فتكبر مثل طفل صغير، تهرم، تشيخ ثم تتلاشى، ويموت الطفل. أين يذهب الدخان؟ لا بد من وجود مكان في الأفق يتجمع داخله، لا يمكن أن يندثر دون رجعة، كثيرة هي الأشياء التي تختفي، لكن هل يجوز أن نصدق أنها تختفي هكذا، وهل سنجدها يوماً ما، أصواتنا، أمانينا، غناؤنا، ما يضيع من فرحة، كلها تحفظ في مدينة ما، هناك فوق السحاب، ترتب بتصنيف لا يقهر، أيعقل أن تختفي كلمة الآه بلا رجعة؟ أظن أنها لا تختفي، أجل هي محفوظة كما باقي الأصوات، فهي طاقة، والطاقة تنتقل لكنها لا تختفي.

طعم الدخان غريب، يصيبني بالشهوة، في كل سيجارة أشتهي امرأة، ومع كل امرأة أعيش قصة جديدة، أنا، أحمد، الذي لم يحب يوماً، ولم أُهدِ قلبي لامرأة، ولم أتوقف يوماً عند نظرة أو بسمة، أحب، ها، لا، فالمرأة مخلوق غريب، لن أفهمه يوماً، لا لست أنا، كل امرأه مغرورة بنفسها، حالة من الوجد، والحنين بذاته، مملكة تختلف عن الأخرى، تتفرد بقدسية لا تحس بل تلمس، كل امرأة تظن أنَّها مميزه ووحيدة في أنوثتها وجمالها، انفرادية في أفكارها، وجسدها هو الأمثل.

لم أشعر بضعف يوماً ما أمام أي امرأة. لكن نظرتها كانت غريبة، أخفت سراً أسطوريا، لا أستطيع الهرب منه، أين التقيتها، في أي زمان كنا معا.

إنكِّ تحركين فيَّ شيئا ما، شيئا يسري ولا أعيه، ينتفض له جسدي، يعيث بي، يحيلني إلى امرِئٍ بلا هوية، منزوع الثقة، جسد بلا أي غاية، أتيه بك، لا أدري ماذا يخبئ لي القدر، ههه، ليخبئ لي ما يشاء، ليهب لي أغنية لا أعرفها، أنا حقيقية لا آبه بالقادم، فهو طاقة نحن صنعناها، فصلناها كما نحب، طاقة تختزل بداخلنا، سلبية كانت أم إيجابية، نبثها في الأثير، نعتز بها، نكتبها فوق دفاتر مذكراتنا، هي أحداث، مواقف، تراتيل، أغانٍ، حزن، بكاء، هي أنغام نغنيها على وتر لا نعرف بحره، طاقة غريبة، وهي بك وبي وبهم، تكتنف بغموض، تحيلنا إلى شخوص ورقية، أنا طاقتي زرقاء وأنت سوداء وهو طاقته بنية، أما هم فلا طاقة عندهم.

سحر طاقتها إيجابية، تبث بي روح الدهشة، أنا مندهش من سحر، هي لا تتوقف عن جعلي متنبها بحضورها، هي أغنية لحنها جميل، عزف منفرد، ربما هو لعود، أو لغيثارة يونانية، هي (ترش على الموت سكر)، تعطيك ألقاً، تريدك أن تكون سيد الفرحة، إكسير الحياة، منتهى الحب، مرتقى الوجد، سحر، تحيلك إلى فرح، تأخذك إلى عالم مريب، عالم يفتضح به أمرك، يسوقك الشوق إلى النشوة، وتأخذك النشوة إلى الحنين، ويمدك الحنين بالبكاء، ويعطيك البكاء احتراقا، والحرقة تبعث بك الحب، والحب يكتب لك أغنية، والأغنية ترقصك على لحن الحياة، إنك تعيش من جديد، سحر تبث بك الحياة.

الدرجة الثالثة عشرة: سحنون

فمي ممتلئ بالطعام والفتاة تحدق فيّ كأنني كائن من الفضاء الخارجي.

فاغرة فمها وأنا لا أتوقف عن الأكل، عيناها صغيرتان وتلبس عوينات طبية، أنفها ناعم وبشرتها بيضاء، يمتد شعرها بشكل ناعم فوق أكتافها ثم يسيل إلى أسفل نهديها، هي لا تقول شيئاً في هذه اللحظات، صمتٌ يطبق على المكان إلا من مضغي المتكرر، رائحة اللحم تأسرني فأشمها أولا قبل ابتلاعها، هكذا أنفي، يصنف الروائح ولا يخلط بينها، فأكل اللحمة ورائحتها التي تملأ عقلي، لا تمنعني من شم رائحة الفتاة. ما اسمك، أقول ثم أبتلع ما تبقى من طبق اللحم المشوي.

- لقد قلت لك، سحر، تنبس بصوت خاشع ثم تعود صامته.

أعرف ذلك، سحر، لقد سمعت أحد باعة سوق الجمعة يتحدث عن ذات الاسم، قال يومها لامرأة سمينة كانت تشتري من بالته: أنت لك سحر خاص، كنت أختلس السمع في زاوية (البسطة)، غنجت المرأة بدلال ثم أمالت ردفها قليلاً كمن يريد أنْ يفرغ حملاً، المرأة ذات الوزن الثقيل تمطت مشغلة نفسها بتقليب الملابس الداخلية ذات الرائحة الكريهة، ثم أخرجت إحدى حمالات الصدر، ورفعتها بوجه الرجل وقالت بغنج: (بقديش هاي). فيقترب الرجل من طاولة الملابس ويمسك الحمالة ملامساً يدها:

- (هاضي الك بدينار ونص، عليّ والله بدينار وربع).

فتتنهد المرأة السمينة وتشيح بوجهها للوراء كمن تكشف أنَّ أحداً لا يراقبها، (كتير هيك)، تقول بغنج مصطنع، (شو دينار ونص، على شو، أصلاً مهرية لبس)، فيثار الرجل ويضغط على معصم المرأة بلطف، (شوفي أنت الخامة تاعتها، قطن كلها، حرير ناعم متلك يا قمر)، يهمس الرجل بأذنها، فتقرّب رأسها إلى فمه وتقول: (شكلك حابب تتعرف، بس أنا سعري غالي)، ويقوّم الرجل وقفته ثم يهرش بنطاله، (الغالي يرخصلك، شو السعر اليوم)، فتشير بيدها إلى رقم خمسة خمس مرات، ويطلق الرجل زفرة طويلة، (على شو خمس وعشرين، أي أنا هيفا وهبي ما بدفع فيها هيك مبلغ، عشر دنانير ما في غيرهم، واعتبري الحمالة هدية من المحل)، فتزم المرأة فمها وترمي الحمالة من يدها متأففة: (أي بيصحلك يا مصدّي، شو هيفا وهبي،

أي أنا أحسن من مليون وحده متلها). وتسير مبتعدة من دون أن تنتظر جواباً.

الفتاة التي اسمها سحر، التي دعتني إلى بيت البش مهندس، عرفت سري، وغنت معي أغنية أحبها، سحر ذات النهدين البارزين، الصغيرين، وضعت يدها على رأسي وتأملت سمرتي، قالت بأني جميل، هي ذات الجملة التي كانت تقولها أمي، وأبي كان يقول لها: (يا عمي، القرد بعين أمه غزال[4])، فتنظر إليه أمي ولا ترد، هو لا يحب أن تضمّني، يتهمها بأنها ستفسدني بدلالها، ويقول أنني أشبه صغير الحرذون، (السحنون).

(4) مثل شعبي.

الدرجة الرابعة عشرة: بين الولادة والموت

الولادة بيضاء..

والموت أسود، ولا فرق بينهما سوى الشكل، هما كلمة استقبال أو وداع، محض حياة فارقة بين الاثنتين، حزن أو فرح، ستأتي لا بد، وينقشع الغمام، بارد، لا يأبه بك، حلم يطول وتستيقظ، لا فاصل بين الحلم والحقيقة، لا فرق بين الجنون والعقل، قد تنتبه لنفسك، تظن بأن العقل هو الفيصل، وأنَّ رزانتك هي التي تصنعك، لكن جنونك هو الأصل، وامتداده هو من يعرّي أي زيف لديك، العقل وهمٌ، جمود للواقع، وحالة من الموت، أجل، حالة العقل هي موت الفكر، وحالة الجنون هي النمو ذاته، التطور الذي يصيبك، فهو لا يأتي بغتة، بل بولادة.

اسمي أحمد!

أجل، وقد ولدت في جبل التاج، كنت أبحث عن التاج لوقت قصير لكنني أدركت أنّه مجرد اسم بلا معنى، ولدت لأمي وحيداً بين ستة بنات، كان بيتنا صغيراً آنذاك، غرفة واحدة وحمام وصالة، وكنا ننام جميعا في هذه الغرفة، أبي كان (دهيناً)، يعمل كأجير مع أحد المتعهدين، لا أزال أذكر أصابعه الملطختين بالألوان، وشعره الأسود الذي تختلط به نتف بيضاء من أثر سقوط الدهان عليه، وملابسه التي كان يستخدمها للعمل، كانت قد فقدت لونها الأساسي، مختلطة بألوان عديدة، لكن الأبيض هو اللون الطاغي عليها.

أحمد، أجل، أنا الابن الذي جاء بعد سأم طويل، الذي شرخ عتمة أمي، وأضاء ليلها، ليلها الذي صنعه أبي، الكاهن الذي يحب النيران، جئت، ولم تسعفني الحياة أن أكون مخلّص أمي، خذلتني الأيام، كبرت على قهرها ونحيبها الذي لم ينقطع منذ ولادتي.

- (إبنك الصحفي انجن، ولا حبّه، هذا اللي كنا نستناه، ربينا وكبرنا على الفاضي. يا خسارة المصاري اللي صرفناها على الجامعات والكتب).

يقول أبي جاحدا، وأنشغل أنا بجنوني، أحب جنوني، لا يستطيع أبي بضحالته أن يعرف فرحتي، الفرحة سرّ متصل، لا ينقطع، يحرك الساكن في أعماقي، يرقّص المكنون، هل يستطيع أبي الرقص، لا، فهو ساكن وأنا متحرك، الجنون نعمة لا يدركها.

سلمى داكنة اللون، قد تموت في أي لحظة، فلا وزن لها، سلمى حزينة، تفترش أرض الغرفة الوحيدة، وأمي تنتحب بجانبها، أمي يقمّطها البكاء ويقمط سلمى الأبيض، الولادة بيضاء، الحزن أسود، هل تكون الولادة حزنا مسوداً، تعترف أمي: تمنيت الموت قبل ولادة سلمى، كانت الحجر الأخير مع أبيك، القشة التي قسمت ظهري والتي خلجت وسطي، أبوك قاسي القلب، مبدد الفرح وكاسر اللوح، أبوك (مخرز) في جسد الأمل، مبعث الحزن ومنبت البؤس.

لا تنتهي أمي من كلامها، لم أعرف أمي يوما سوى باكية، يا خالق الدموع، اصفح لأمي، أبعد عنها الغمامة واسْقها الطمأنينة.

صوت أمي يخترق أذني، يعبث بروحي، أسمعها تكبّر في الصباح، (الله أكبر، الله أكبر)، لماذا تستيقظ مبكرا هذه المرأة، تبسمل وتحوقل، ترش الماء، تتيه نشيطة غير عابئة بالخلق النائم، ترفع يديها للسماء صادحة: (يا خالق الغمام، والسحاب وأرضٍ ينام فيها العباد، اسكب رحيقك بقلبي، خالصا، أمهلني أن أعبدك جيدا، وخذ بيدي، وحررني من سخطي ودائي وعيني التي لا ترى إلاك، يا مخلصي، أنت مستوى الأفق لدي، أنت حرزي الذي أستنير به، كابر من وجدك أعتلي، وزاهدة من حبك أرتضي، كلمة حق وعيش وئام، يا منتهاي، ومرتضاي ومعذبي، أنا لك وأنت لي، والكل ما بيني وبينك لا يفي، لا هوى لي غير هواك، معمري، ومدثري، ومداد ثغرك انهري، من

يرتضيك يكن الهوى ومن يعتريك يذق الجوى، مرادي أنت ومنبري، وتوبتي وتذللي، منك المرام يا باهري ومعلمي، منك السلام ولي الوئام فدلني، دلني إليك).

الدرجة الخامسة عشرة: لا أُطيق الماء

أمي لا تأكل طيلة اليوم..

أراها تغسل الصحون ثم تكنس الأرض وتولم الطعام وتبكي، أجل تبكي باجتهاد، وتجوع طوال اليوم، ثم تضمني ودموعها تبلل رأسي ورائحة فمها لا أستطيع احتمالها، فأسرّ لها بأنني لا أطيق ضمها بسبب الرائحة، وتقول أنها (صايمة لله، إنه شهر رمضان)، ها، وماذا يعني ذلك، وتعاتبني بأنها تصوم عن الطعام والشراب وذلك لنيل محبة الله، ويثيرني الموضوع، لماذا يريد الله أن تجوع أمي كي يحبها، وأسأل: وتظلين بدون لحم أو ماء، وتدهشني بإجابتها أن: نعم، وأستغرب حقاً كيف تكون الأطعمة أمامها ولا تأكل، وأتعمد أن آكل أمامها، وأمد لها (قطف) عنب، وأضحك، لكنها لا

تأكل، هل أنت جائعة، أقول، أجل، تقول، إذا لماذا لا تأكلين، أستغرب، لأنني صائمة، تبتسم لي، سحقا، أنا لا أفهم شيئاً.

أجمل شيء في رمضان هو قمر الدين، العصير الذي تعده أمي برغم بطنها المنتفخ، تنقعه طوال الليل وفي النهار تسحقه بيديها ثم تعجنه وتزيد عليه ماء فيصبح لذيذا، طعمه ليس غريباً علي، لكنني لا أستطيع تمييز الطعم من أول مرة، قمر الدين ليس له علاقة بالقمر، ولا بالدين، هو اسم ابتدعه أحد المحبين للمشمش. هكذا حدثني أبي.

سحر ابنة المهندس يتدلى شعرها فوق رأسي، وتمسك بيدي وتقربني منها وتشم رائحتي، ولكنها تبتعد عني فجأة ثم تسألني: هل تحب أن تستحم، أريد أن أجعلك أجمل سحنون.

لا أطيق الماء يا امرأة، أكرهه، كيف سأشرح لها ذلك، الماء بالنسبة لي عقاب لا أستحقه، أنا بريء ومظلوم، لم أفعل أي شيء لأعاقب بالماء، ولكن أبي يدفع برأسي في الماء، تجحظ عيناي، يتوقف قلبي وينوس نَفسي، وباب الحمام مغلق، وأبي يذيقني الماء عنوة، هل يود إغراقي؟ وأمي تصرخ في الخارج: ارحمه، ليس ذنبه، أنا الذي سرقت نقودك، والله!

تجرني من يدي إلى الحمام.

الفتاة الجميلة، التي أشعلت ماردي وحطمت رائحتي، لم تقتنع بأن قلبي يخشى الماء، تُصرّ أن تعيد ذكرى الغرق، تحاورني بلطف أن أكون تحت الماء

ليغسل همي، حزني الرابض فوق كتفي كحلزون عملاق، هل أستميحك العذر يا فتاتي، الماء يقتل ما تبقى مني، هل تودين إغراقي! وتحاول هي مرة أخرى، لكنني أرفض، وأمي تصيح من الخارج: ارحمه، سيغرق الطفل، أستحلفك بالله، بالأنبياء، بالأولياء، بالشهداء أنْ تتركه، أو تغرقه، أجل لا تعذبه هكذا، اقتله، وإلا قتلت نفسي.

تقول سحر: دقيقة واحدة وستكون أجمل رجل، سأغسل جسدك بالعطر وأجعلك تبدو كممثلي السينما، وأحس بارتعاش يدها ونبض قلبها، سحر ابنة المهندس تريد أن تغسل ذكرياتي وتمحو رائحتي، رائحة أمي ورائحة بيت الدرج ولهفتي، لماذا يا سحر؟ ألا تعلمين بأن رائحتي هي سرّ وجودي، أتريدين قتل أمي مرة ثانية وطردي من منزلي، أود الرحيل، أريد زوجتي الآن، أريد الهرب، وأهرب، فتبكي سحر. وأتذكر أمي فأتوقف، وأنظر إليها، أجل إنها تبكي، ياه، ما الذي حل بك يا سحر؟ هل قسوت عليك، لن أهرب، سأبقى معك الآن، لكنني لا أريد أن يمس جسدي الماء، ما الذي يدعو النساء إلى البكاء بهذه السهولة؟ أقول لها: هل أغنّي لك كي تكفي عن البكاء، اسكتي. فتضمني لصدرها، وأحس بثدييها الصغيرين، هما مختلفان عن ثديي أمي، هما أصغر بكثير، وملمسهما ناعم ورائحتهما مختلفة، أحس بسحر، ودقات قلبها، هو شعور مختلف، أحس بحرارة تدهمني، أشعر

بالدفء أيضا، ويتيقظ في هاجس غريب، أنا أذوب بين يديها، هل ستعطيني حلوى يا سحر؟

وتبتسم ثم تطبع قبلة فوق خدي، ثم تطبع أخرى فوق شفتي، أحس بازدياد في دقات قلبي، هل يصح ذلك، قبلة فوق الفم، ألا تشعرين بالقرف، أقول لها، وتقول اصمت، ابق صامتا، لا تتكلم، أود أن تكون لي وحدي، رائحة اللحمة لا تفارق أصابعي وطعم قبله سحر لا يزال بفمي.

الدرجة السادسة عشرة: آخر البنات

طعم الموت يشبه طعم الولادة..

كلاهما مُرّ، لكن الموت أغبى، ويأتي على غفلة، والولادة تأتي بعد انتظار، وبخور، وأدعية لا تنتهي: هل يأتي المولود صبياً، لا، إنّها بنت، (عروسة زي القمر)، تقول الداية فتحيّة، هامسةً كيلا يسمع والدي هذه الحقيقة، عروسة سادسة لأبي، وهو كامن وراء الباب، ينتظر خروجها، فتحيّة، الداية المتمرسة بفنون الولادة تنظر إلى جسد الطفلة الباكية، هل تختلف صرخة الذكر عن صرخة الأنثى؟ فتحيّة تميز كنه ذلك بالطبع، وتبارك قدوم أختي على خجل، فتحيّة كانت تنتظر البشارة من أبي، تنظر لأمي معاتبه، تود أن تقول لها: (ليش عملتي هيك)، طارت البشارة في هذه اللحظة، أمي منهكة من الولادة، لكنها مدركة لما ترمي إليه فتحيه، وأبي ساحرٌ يفرك يديه من وراء

الباب، ما الذي يريده هذا الرجل؟ مزيداً من الذكور ليزيد عقابهم، فتحيّة تتمنى أن تقفز من الشباك قبل مصادفة أبي.

تخرج، وينتصب أمامها ككاهن للنار، يحدق بعينيها، يشير بيديه بطريقة دائرية كراقص باليه، (شو، قمحه وإلا شعيره)، يرتجف صوته، هي شعيرة سادسة يا أبو البنات، تتمتم فتحيّة ويسودّ وجهه ويظل كظيماً، ينكسر بصره لحافّة الغرفة، يود لو يعصر رقبة فتحية بيديه، يقول: (طيب يا رب ولد صالح غير اللي عندي، بس)، وتندس فتحيّة من خلفه كحيّة متسللة، الباب منسدل على أختي الصغرى الزاعقة، سلمى وأمي الحيرى، وفتحيّة الهاربة وأبي الكاهن الذي خابت آماله بقدوم سلمى، سلمى أختي الصغرى، سمراء، أتت بولادة طبيعية وانتظار، وجحود للبطن المنتفخ، والطعام المميز على اعتبار أنه ذكر، سلمى، البنت الأخيرة، التي قرَّر أبي بعدها الزواج من غير أمي، حلف يومها بأنه سيتزوج ولن يصبر لحظة واحدة.

الموت مرّ، صدقوني ولا يأتي صدفة، هكذا عرفته، ورأيته بأم عيني، يأتي بغتة ولا يجامل أحدا، لماذا يموت الأحباء، ألا توجد حلول أخرى، أمي، المرأة التي خبأت سلمى ببطنها، التي عافت نفسها عن الطعام، وتقيّأت ليالي عديدة، أمي المرأة التي أنجبت ست عرائس، تغيب فجأة، هل عاث بقلبها الحزن بعد زواج أبي، ربما، لكنها لا تحبه، فلماذا تغار عليه؟

امرأة أبي، سمينة، ولها ذقن كالرجال، ورائحتها كبرميل قمامة، (هل انقطعت نساء عمان لتتزوج هذه المرأة يا زلمة؟)، تقول أمي وتنتحب أمام أبي، وتشد شعرها، وتجتمع أخواتي حولها، متشحات بالبكاء، وهول المفاجأة التي أحضرها لنا أبي في ليلة العيد.

الدرجة السابعة عشرة: الشيطان أسود

هناك من يهس في أذني.

أجل، هو لا يهمس بل يهس: هس هس هس، استيقظ، يزعجني الهس، أستطيع احتمال كل شيء إلا الهس، يستفزني، أود أن أصرخ، لماذا يحاول إغاظتي، ابتعد، أصرخ به، (مش فاضيلك)، ولكنه لا يتوقف.

هل تريد أن تشرب شيئاً، تقول سحر ثم ترفع يدها نحو فمها، هل تتحدث معي بلغة الإشارة؟

- أجل، بابونج، أقول ذلك وتضحك سحر.

أحب البابونج، هو يريح دماغي، أخضر منقوع بماء ساخن تعده لي أمي عند الغروب، تمسح فوق رأسي، وتستعيذ من الشياطين، تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وتقرأ أدعية فوق رأسي.

- شيطان، ما هو الشيطان يا أمي، كيف هو شكله، هل هو أسود؟ لا أظن إنه زهري! أقول مستغرباً.

- اشرب يا بني، حتى يختفي المغص، تمتعض أمي ولا تجيب.

- أمي، هل الشيطان سبب هذا المغص، لم لا تجيبي على سؤالي، هل هو أسود؟ أردّد.

ولا تستطيع أمي الإجابة، تشيح بوجهها عني، وأرفش الشيطان برجلي، وأضربه بيدي، ابتعد أيها الشيطان عني، وتضحك أمي وتسيل دمعتها بسرعة البرق.

- حسرتي عليك يا وليدي من بعدي!

أمي المرأة البكاءة تزيد من وجعي ومغصي، تتآمر مع الشيطان وأبي، أريد أن أشرب البابونج، أريد أن أنسى كل ما حولي، كم أود الرحيل!

الدرجة الثامنة عشرة: قهوة أبو اصطيف

بيت الدرج يضيق..

لا أشعر بمزاج للتدخين أو المضاجعة، لقد انطفأت الكهرباء مبكراً هذا اليوم، في مثل هذه الحالات أكون نائماً، لكن ما بال النوم لا يأتي اليوم، (النوم سلطان)، يردد أبي جملته ثم يغفو أمام الصوبة، يرتفع كرشه عن باقي جسده، كرشه كبير ويبرز بطريقة غبية، يتميز أبي بأنه سريع النوم، وكثير الشخير، شخيره من النوع الذي يصيبك بنرفزة، فهو مزعج وغير مؤنس، مؤنس، من هو مؤنس، أحاول أن أتذكر هذه الأسماء وكلمات كثيرة أقولها، أنا أعرف مؤنساً، أعرفه جيداً، الرجل الرقيق القلب الذي يعطيني نقودا كلما صادفته، يأتي لقهوة (أبوصطيف) كل يوم، أراه ينظر إلي بعطف، يقول: أحمد، هل ستطول غيبتك، هل ستبقى بهذه الحالة، أرجوك ارجع لنا، نريدك بيننا، إنّه

يعرف اسمي، هو يعرفني إذاً، ولا أفهم حرفاً مما يقوله، ولكنني أحبه كثيراً، هو يعطيني الشاي بدون نقود يقول: (أبوصطيف، حساب سحنون علي هاي المره وكل مره).

يجلس مؤنس مع عدة رجال، يشربون القهوة ويتحدثون عن ثورة في تونس، أنا أعرف تونس، جيدا، لكنني لا أتذكر جيدا، يقول مؤنس: (الثورة بدأت ولن تنتهي، الله يستر من الجاي). يهز الرجال رؤوسهم، ولكن أحدهم لا يعير انتباها لمؤنس، لما لا ينتبه ذلك الرجل لما يقوله مؤنس، الرجل يلبس قميصاً أصفر وبنطالاً كاكياً، وجهه دائري وأنفه مستدق، يذكرني بمسلسل عدنان ولينا، (عبسي)، أجل (عبسي)، هو (عبسي) بأم عينه، يقول عبسي:

- الثورة لعبة أمريكية، مؤامرة على العرب، هل تؤمن بذلك، (يا إخوان الوضع مبين، ما حدا بيقتنع بهاي الثورة إلا واحد غشيم).

ويبدو أن الكل حول (عبسي) مستغرب، فقد امتعضوا من فكرته وخاصة مؤنس صديقي الذي أدار الكرسي جهة (عبسي) وقال:

- يا أخي، الربيع العربي كشف عورة الرؤساء العرب، نكأ دماملهم التي أكل صديدها دم الشعوب، لا بد للقيد أن ينكسر وها هو ينكسر.

ويوافق بقية الرجال ما يقوله مؤنس وأوافقه أنا كذلك، وأهزّ رأسي فينظر إليَّ مؤنس بعينين ذابلتين ثم يتابع كلامه: يا جماعة، الثورة مفتاح

الأمل، وهي مخلصتنا من الاضطهاد، صحيح أنّ هنالك ضحايا، لكنَّ النهاية السعيدة ستكون من نصيب أبنائنا وأحفادنا.

ويتشنج (عبسي) لسماعه الجملة الأخيرة ويرفع كأس الشاي لفوهة فمه ثم يسهم في حديثه:

- الموضوع مش موضوع أحفاد وأولاد، الموضوع مؤامرة على مقدرات الأمة العربية، شرق أوسطي جديد، تقسيم تركات، سواء في إفريقيا أو في أسيا.

من الجلسة، ثلاثة أشخاص لم يتكلموا منذ البداية، لكن حدة النقاش دفعت بأحدهم إلى معارضة (عبسي):

الرجل المعارض يلبس جاكيتاً صوفياً بالرغم من الجو الحار في المقهى، يطلق لحيته فوق وجهه ولديه حاجبان نما شعرهما فتهدّلا فوق عينيه، هو يمسك بيده النارجيلة ثم يشير إلى (عبسي):

- كل شي (خنثتموه)، حتى الثورات الحقيقية تريدون أن تشككوا بها، دعوها بريئة منكم.

الموقف يزداد احتدادا، ويتدخل مؤنس لتهدئة الوضع:

- أعتقد أن نظرية المؤامرة بحد ذاتها قد تكون موجودة لكن ليس عند العرب، فمن يأبه بهم أصلا.

(عبسي) يرشف الشاي ببطء فينتشر صوتٌ نشازٌ.

يقول: إذا صح كلامكم، فلماذا تحصل الثورات في ترتب درامي متتابع، تونس ثم ليبيا واليمن ومصر وسوريا ثم كدنا هنا أن نقع بهذا الفخ لولا حفظ الله، اصحوا يا إخوان، هو مسلسل تلعبه إسرائيل وأمريكيا على العرب، سينالون مرادهم بسبب غباء الشعوب وقصر نظرهم.

يحرك أحد الجالسين حول الطاولة كرسيه، ثم يهم بالرحيل، لكن بقية الرجال يقنعونه بالجلوس.

- مالك (أبو مهند)، اقعد يا زلمة، يقول (عبسي).

يتذمر (أبو مهند) بأنَّ المواضيع التي يتحدثون بها (تسم البدن)، ويعده الرجال بتغيير الحديث، فيقول مؤنس: الحكومة لن ترفع الأسعار بشهر رمضان.

وتكفي هذه الجملة لينشغل المجتمعون بهذا الحدث الساخن، يشفط مؤنس من (نارجيلته) نفساً عميقاً، ثم يستطرد باستهزاء:

- بيقولوا رئيس الوزراء الجديد، كويس، وأنه ابن بلد.

ولكن (أبو مهند) يَهز بإصبعه نافياً هذه الحقيقة:

يقول: والله مش شايفين الكويس، ولو كان بيصير عاطل.

ولا شك أن الرجلين الرابضين في أقصى الطاولة يتابعان فقط ما يجري ولا يهمهم من المنتصر بحديثه ومن هو صاحب الرأي السديد، لكن إيماءاتهم تشير بأنهما شديدو الحرص على سماع كل كلمة تقال.

ينبري (عبسي) لإضافة جديدة:

- هذا الرئيس وغيره، مسيرون من أمريكيا ومن المخابرات الأمريكية، افعل، لا تفعل، وأي قرار في البلد يجب أن يمر على السفارة الأمريكية بالأول، حتى قرار رفع الأسعار يجب أن تتم الموافقة عليه من قبل أولي الأمر الأمريكان.

الكل يستمع إليه، ومن ضمنهم (أبو مهند) والذي يهز برأسه قليلا ثم يفغر فاه عند سماعه معلومة جديدة.

أحد الرجال في أقصى الطاولة يتنبه قليلا ثم يقول: لا اعتقد بأن للأمريكان ضلع بهذا الوضع، وإلا لماذا لا يساعدوننا، إذا كنا مهمين لهذه الدرجة، لكن هل نحن مهمون أصلا؟

الدرجة التاسعة عشرة: رائحة فساد

أحدهم يعبث بهمس وراء أذني..

أحس بنفخ خفيف خلف رأسي، ألتفت للوراء، لا أحد، هل هي لعبة اختباء؟ لا أحب هذه التصرفات، أشعر بأنَّ الهمس يزداد ويتحول إلى طنين، أذني لا تستطيع احتماله، رأسي صندوق ممتلئ بالقصص المهملة، تفيض منه وتجعله مهترئاً، يهمس ويطن، لا أطيق، أمسك رأسي بيدي، أخلعه من منبته، لا أريدك الآن، أريد أن أرتاح، أود أن أكون بلا رأس، أن أُسكت الطنين، وأطرد هذا الشخص من رأسي، يهزني بيديه، أشعر بدواخ، وأنَّ رأسي يشتعل، قلبي ينبض كقطار لا يجد طريقاً، أنا أنطفئ، تختلط الألوان، وتغيب الصور.

أشعر بأني ذو رائحة كريهة..

أشتم إبطي، رائحة غريبة عني، أهرع للماء، أرش جسدي، أريد أن أتخلص من هذه الرائحة، اغتسلت بالصباح، فركت جسدي بصابون معطر، ووضعت عطراً فاضحاً، لم لا تختفي الرائحة؟ اليوم هو الأول بعد استقالتي من الجريدة، أشعر بخفة في قدمي، وأن سقفاً قد اندثر من فوق رأسي، لن أرى وجه رئيس التحرير مرة أخرى، عليه اللعنة! سأكتب بملء رئتي، سأتنفس الحروف، لن يحدّ قلمي حدود وهمية زائفة، حدود العقل التي كبتوا فيها حريتنا، الفاسدون، من باعوا الكلمة وعاهدوا الشيطان، من خانوا الوطن، سرقوه جهاراً، أجل، سرقوا حدقتيه، وخفّوا بالمسير، هم أمامي أراهم، سحقاً لهم، سأكتب اليوم عنهم، سأفضحهم، سأعري دماملهم السوداء، هؤلاء الذين استدرجوا البلاد للهاوية، الذين قايضوا ونهبوا.

يمسك رئيس التحرير مقالتي ثم يقرأ بصوت جهوري:

(تضيع المقدرات بسهل ممتنع مقيت، فإنْ كان قصد الحكومة أن تداري سوأة الذين نهبوا خيرات البلاد فلتدفع ثمن ذلك هي، ولا تطلب أن يدفع المواطن هذا الثمن، مؤامرة هي، والحكومة شريك استراتيجي بها، مؤامرة إفقار الشعب وتجويعه وزيادة الضرائب وسحب هيبة المواطن، وبيع الموارد، فإن كان حسن النية لإصلاح فإنَّه ينبغي أن تقوم الحكومة ممثلة برئيس الوزراء بإعادة ما تمَّ سرقته من أموال، ومحاسبة الفاسدين بشكل علني...)، ولا يكمل القراءة، يصفرّ وجهه، تضيع الكلمات من بين شفتيه.

- مقالك، مرفوض يا أخانا، جملة وتفصيلاً...

أحتاج إلى شربة ماء كلما تحدثت عن الحكومات الفاسدة..

ينبغي أن أبلل ريقي من دسائسهم التي تجلب الظمأ وتنشر الملح في العيون والقبح في القلوب، (مرفوض! أقولك: طز، وهاي استقالتي)، أقول ثم أرمي استقالتي فوق مكتبه، أسترق النظر، إنّه يخفي ابتسامته وهو يمسك بالاستقالة، كان يمعن النظر بالورقة تارة ثم فوق الحائط بجانبه تارة أخرى.

- لا أعتبر ذلك قطعيا أستاذ أحمد، لن أقبلها في الوقت الحاضر.

أعرف أنه لا يقصد أن يكون لطيفاً، فطبعه زائف وهو يخدعك حتى آخر لحظه لديه، أحس بذئب يتسلق بمكر كلما ركزت بعينيه، أراهما ضاحكتين، يبتزني بهدوء أعصابه، وأنا واقف كجندي يود إطلاق النار، أنتظر أن يستفز، لكنه يضحك بهدوء، ويقول:

- استاز أحمد، ممكن تجلس، خلينا نتفاهم.

ولا أتفاهم معه، بل يزيد صراخي، وأحس برائحة إبطي تزداد مع كل كلمة أقولها بوجهه، هل هي طاقة سلبية تلك التي أخرجها مع العرق، دائما تصيبني هذه الحالة، إحساس برعشة وتشظٍّ كلّما ازداد غضبي، لا أود الجلوس، أود أن أغضب، أن أتمرد على شعور الخنوع، أريد أن أخرج من جسدي، أن تطير روحي بخفة فوق مبنى الجريدة وأحلّق فوق الغيوم، ربما

ارتحت قليلا فوق غيمة بيضاء، سأستند عليها لبضع الوقت وأنظر ملياً إلى هموم البشر وأدعو لهم بالخلاص.

قلبي سيخرج من أحشائي، ويل لهذا الرجل، ألا تتحرك جفونه حتى!

- (انتو الفساد عمى قلوبكو وعيونكو)، فساد في الفؤاد والعقل، أقول مستنفراً ثم أضرب فوق الطاولة.

- أنت زدتها، هيك ما ظل إلي خيار إلا قبول استقالتك!

ويقبلها الوغد، ويحاول توقيعها لكنه لا يجد قلماً، فيطلب قلم حبر، فتهرع فتاة من خارج المكتب وهي تنظر نحو عيني، لماذا تنظر لعيني بهذه الطريقة، إنها تود أن تقول شيئاً.

- أستاذ أحمد، بلاها ها اللاستقالة، تهمس.

الله، ما أجمل صوتها، هل تود أن أبقى في الجريدة، هل تحبين رؤيتي أيتها الفتاة الجميلة، لكن لِمَ لم تقولي ذلك منذ عشر دقائق، لربما انتظرت وتحملت هذا الفاسد لأجلك، لأجل عينيك، ولربما داهنته وغيرت نهج كتابتي وأصبحت فاسداً بامتياز، هل تحبينني فاسداً؟ زنديقاً! لا يأبه بعمان ولا تثيره ناعور، ولا يهتز له جفن لعجلون أو الكرك، هل أنسى غبار الوطن وشجو بلابله، أنسى الطيور وحبات المطر والسنابل التي لم تكتمل لانقطاع المطر، كيف أخلع قلبي من جوفي، هل أهادن وأصالح وأبيع؟ كيف... أنت، يا ذات العيون العسلية، أتودين أن أركع للشيطان وأكون له عبدا، أتقبلين أن

أتفيَّأ جداراً بُني على باطل وقهر وذل، أترتضين ذلك! سحر، يا أجمل امرأة رأيت، حتما إنّك لا تحبين ذلك.

عيناي لا تفارقاها، وهي تنكمش صغيرة العود أمام جسدي، هي لا تحتمل الفراق، يحمر خداها، ترتعش يدها وهي تمد القلم للوغد، يسود صمت، هو يمسك القلم، أنا لا أنبس بأي كلمة، وسحر تملأ المكان بهجة، أود لو يختفي القلم من بين أصابعه، وأنْ يعود لكلمته وأعود لأجلها، لأجل سحر، لكنه لا يعود وأستقيل.

أكتب في آخر الليل:

سحر، أجمل من القمر، امرأة مذهلة، ضوء لا يحتمل، شهية لا يمكن الإغفال عنها، امرأة لا تترجم للغات أخرى، امرأة تحتوي على الآه ووجع يحتمل، وجع شهي، تتمناه ولا تحب أن يتركك.

أنت أيها القمر، يا من بالسماء ضوؤك. أنا غير متنبه لك. فلدي الكثير، أرجوك اتركني في هذه اللحظة، لا تظهر حلاك، ولا تكن الأفضل، وافهم المعنى. وغب قليل. فهناك من هو أجمل.

الدرجة العشرون: "عمان يا حنه على حنا"

أمي لا تطيق أبي..

أنا لا أفهم حقده لي الذي لا ينتهي، أبي يملأ برميل الغسيل بالماء ويعاقبني كلما أخطأت أمي، يدسّ رأسي بالبرميل ثم يدفعه ويضغطه، وأختنق، لكني لا أموت.

أنا اعتدت على هذا الوضع، أكتم نفسي، وأسافر في برزخ لا أحد يعرفه، تنبت لي أجنحة زهرية اللون، أطير فوق الغيوم، أرى البيوت صغيرة جداً، أرى بيتنا، وقهوة مؤنس، والمسجد الحسين، أرى رؤوس الناس وسوق الجمعة وقططاً كثيرة، وبيوتا لا أعرفها، أسمع قصصاً تقال ثم تطير في الفضاء، وأكاذيبَ مصدقة يرويها الأزواج لزوجاتهم، ومشاعر بلا معنى يقولها عشاقٌ خدعتهم السكينة وغرهم حسن الكلام، فلاحون أرهقتهم الأرض الفقيرة

فأنجبت قمحا هزيلا، أرى قلوبا أتعبها الصبر وأمهات يرفعن أياديهن بالدعاء، رجالا بلا قلوب، وأطفالا يموتون بلا سبب.

أرى الكل من تحتي، أرى عمان. عمان حلمي، أعرفها جيداً، صغيرتي التي أحب، كلمتي التي أنسى الكل ولا أنساها، قبلتي التي لا أعطيها لإنسي، عمان سري الذي خبأته بقلبي، وخبأت مفاتيحها بجيبي الصغير، كلانا صغير، يقسو علينا الأب، ويسرق آمالنا، أجل هو يسرق ما تبقى من عمان، درجاتها، قططها، رائحتها التي أعشقها، شوارعها المضمخة ببرك الماء، نسيمها، وأريجها.

عمان، تصيبني بالرعشة، يقتادني الوجد إلى سقوف البيوت، أدخلها، أعرف قصص أهلها، لهجتهم تضحكني، تدغدغ فيَّ إحساساً بأنني من أهل البيت، أود تقبيل الناس من حولي، سأغني لهم أغنية أحبها: "يا حنه على حنا[5]"، الجميع حولي يغني معي، أنا من قال هذه الكلمات أولاً، لا لقد قالها حبيب، أعرفه، الشاب الأسمر الذي كان يحنو علي، حنه، أراها عند العيد، أنا أحب العيد، ويأكلون الحلوى، حلوى كثيرة، عمي يحبني، يسكن السعودية، هو يأتي بالعيد، أنتظر العيد، عمي أحضر لي سيارة تمشي لوحدها، يقول عمي: (أنت يا سحنون، حرام تكون بعمان، تروح معي)، فأرفض ذلك، أقول له، أنا لا أحب السعودية، أود أن أرى قططي في الصباح، ولا أطيق أن أكون بعيدا عن أمي.

---

(5) قصيدة مغناه للشاعر الأردني الراحل حبيب الزيودي.

الدرجة الواحدة والعشرون: أيقظوني من حلمي

وجع في الرأس..

فشل محتمل للذاكرة، يقول الطبيب الحالم للممرضة ثم يضع (سمّاعة) الفحص فوق ظهري فأحس ببرودتها، تفضحه نظراته، ويحكّ رأسه بغباء، قل: آه، يقول ولا أجيب، يقول أيضا: خذ شهيقاً، فأشهق، ثم زفيراً فأزفر، وأنا ملقى على السرير وألبس الأبيض، يحتمل أن تموت، ويحتمل لا، يقول الطبيب ويلبس مريولاً أبيض. هي احتمالات إذن أيها الطبيب أجيب بابتسام، ولا يحب الطبيب طريقتي في الحديث. ما الذي يريده هذا الرجل؟ رزانته تستفزني، ورائحة الكحول في المشفى تجعل منه ساحراً لا يحتمل.

الأبيض يشي دائما برائحة الموت، يشي بقادم لا نحبه، ولكننا نلبسه ونتقي به من سوادنا، نلفه بإدراك تام لخطورته وهيبة نصاعته، الأبيض معزوفة القادم من المجهول، لون غريب لا يعرف عن الأسود شيئاً.

تجتاحني غربة، لا أطيق أحداً، أحسّ بسأم يجرفني بعيداً عن الناس، هل أكرههم، لا أظن ذلك، لكنني لا أود رؤية أحد، أغلق باب الغرفة على نفسي، أعتم ضوء الغرفة قدر المستطاع، أريد الوحدة، أريد أن أكون بلا وطن أو أهل، أود أن يتركني الجميع بحالي، أود أن أنصهر بالعتمة، أن أذوب باللاوعي، وأن أكتب.

صور كثيرة تمر من أمامي، لا أحلل شخوصها، أنا أحلم، لا، هو واقع بلا شك، فهذا أبي يحمل عصا، وأمي تبكي، وأخواتي يركضن من حولي ومؤنس يرقص وسحر تكشف عن ساقها، والطبيب يتوعدني، صور أعرفها، وصور لا أعرفها، تتغير الإضاءة عنوة عني، لا أريد الضوء أريد الظلمة، ينتابني صداع في أسفل رأسي، وألم يمتد لرقبتي، أمسكه بيدي، أحاول شرح ما يدور لمن يحيط بي، أجساد وروائح تختلط، أصوات تتعاظم ثم تتضاءل، أحس بأنّي سأهوي، سأسقط في جوف الظلام، أريد أن توقظوني، أرجوكم، أيقظوني من حلمي هذا!

تدوخني الرائحة، لا أستطيع إبعاد أنفي عنها، أقترب من رقبتها وأحاول امتصاص رحيق عبيرها، تبعدني، تقول: (ما لك)، هل أنت طبيعي، لماذا تشمني....؟

- هِهِه، أشمك، لقد كنت خائفاً أن لا أحب رائحتك.
- ماذا، تخاف من ماذا!
- لا شيء، لا تشغلي بالك.

عبق، لا أستطيع صده، تلك التي تسري بدمي، تغوص غير عابئة بي، أرتمي باستسلام، ميت أنا، دمي مستباح، حياتي رهن لها، رائحتها تجتث قلبي، تستسلم هي، تغوص بي، تقول:

- أنت مجنون!

سحر، امرأة لا تعرفها إلا عن قرب، تحس ببله في عينيها وهي بعيدة عنك، لكن هذا البله يستحيل ناراً تحرقك، تميتك بلحمك، تمسك قلبك، تشحذ همتك ثم ترميك تحت بيت الدرج.

أجل، بيت الدرج!

كلما مررت من جنبه، تخيلته بيتي، هل سأسكن به يوما ما، هل سترميني سحر في هذا الخندق، وتنسى ذكرياتنا، تقول: متي ستخطبني؟

وأضحك، وتكتفي هي بنظرة ثكلى.

- أتعرفين، أنا من لا بيت له، دواج، صعلوك، غجري يبحث عن المتعة، ولا يجدها، فتحتد ويطير صوابها. لا تنتظريني، سأكون هناك.

- أين؟

- لا أدري.

- اللعنة عليك!

- أدري.

الدرجة الثانية والعشرون: أبو اللحية البيضاء

العيد غريب في عمان..

الأطفال هم وحدهم الذين يفرحون، يشترون بنادق بلاستيكية، يطلقون عيارات نارية، ويأكلون الحلوى، يأكلون حتى يمرضوا ثم يزورون الطبيب، أما الكبار فلا يفرحون بشي، ربما لانتهاء شهر رمضان فقط، سمعت أبي مرة يقول: (فراقه عيد)، سألت عمي وقتها، من هو، فضحك ثم قال: لا تنصت لأبيك، هو يقصد رمضان شهر البركة والرحمة، ويحتد أبي لكلام عمي: رحمة مين، والله متنا من الجوع يا زلمة، بدنا نوكل، ويرفع يده بقطعة حلوى كبيرة نحو فمه.

الطقوس ذاتها في العيد، لا تتغير، أحس بأنني أكرر ذات الحدث والأحاديث، شيء ممل، بل إنَّه يصيبك بالإحباط، الخطيب أبو اللحية البيضاء، صوته بشع، أجش، لديه بحة غير مستحبه، يقرأ من ورقة مهترئة ذات الخطبة، ينهر الأطفال، وينكل بالشباب، ويطلب من الشيوخ تجهيز نفسهم للموت، الخطيب جشع، ويطيل الركوع ولا يحب الأطفال، ولكنه دائما يخطئ.

كان أبو اللحية، بعد الصلاة ينحني لتقبيلي، لديه أسنان سوداء، رائحة فمه كرائحة (فطيسة)، يقبلني فيطبع اللعاب فوق خدي، وأمسح اللعاب وتنتشر بعدها رائحته النتنة في أنفي، وأقول لأبي إني لا أحب الشيخ، ويتفق معي في ذلك، (ما حدا بحبه، والله بيجوز ربه ما بحبه).

العيد يصيبك بالسأم، يلبس الناس دشاديشَ بيضاء لا تخفي أحشاءَهم، يتبادلون القبل، يجتمعون أمام المسجد، الكل يقبل، مليون قبلة تنهمر فوق وجهي، والكل يقول ما شاء الله، ويربتون فوق رأسي كقط مدلل، أذكر جدي الذي كان يكره القبل، لقد كان يرفع يده لمن يسلم عليه، يقبله الأولاد على يده، وهو ممسك عصاه في اليد الأخرى، كان جدي يتربع في وسط البيت، عجوز هده التعب، يلبس (حطة وعقالاً)، يقول أن جدتي امرأة

فاتنة، وجدتي تبتسم، تجلس قبالته، يشير بعكازه نحوها، هل ما زال يحبها، أسأله، جدي، هل تحبها، فلا يجيبني، يقول: ربما، فهي التي وقفت بجانبي كل هذه السنين. جدي له تجاعيد كثيرة فوق وجهه، أمسكها بيدي، أمرر عليها أصابعي، يدغدغه هذا الشعور، يقول: هذه التجاعيد هي سنوات عمري، اسأل جدتك، هي تعرف جيدا ذلك، ويتنحنح أبي، ويطلق ضحكة رعناء لا تعجب جدي.

الدرجة الثالثة والعشرون: قلب مؤنس

انتصف النهار ولم يعد مؤنس..

انهمكت بقراءة مسرحية لكاتب تشيكي، أعجبني أسلوبه، يكتب بلا سقف، استغربت كيف تمّت الموافقة لنشر مسرحيته، أنهيت المسرحية لأكتشف بعدها أنَّه هو رئيس البلاد ذاته، أصابني حينها حزن وحالة من القهر، لماذا نحن مسلوبون للمجهول؟ هل ينبغي أنْ يكون الألم رفيقنا في كل فعل نقوم به، حزننا، فرحنا، قيامنا وقعودنا ولهونا، هل ينبغي أن تكون المؤامرة جزءًا من حياتنا التي نعيش وأنْ يكون هنالك ضحية، وظالم، أيعقل أن نبقى مرهونين لماضي انقضت حلاوته، وحاضر يجتر نفسه، ومستقبل لا يعرفه الكثيرون، ويغيب بيننا الحكماء، ونحتار مع من الذي يعلو، والذي

يحكم، هل من مزيد، قلبي ما عاد يفهم شيئاً، ما عاد يحلّل الأمور كما كنت سابقاً، يخطئ في المعرفة ويحتار في الأجوبة، بصراحة، لم يعد لدي أجوبة.

مؤنس، هاتفه مغلق، هل يعقل أن يكون في مأزق ما، لقد فقد عقله في الأيام الأخيرة، فهو نشيط سياسياً بشكل كبير، اعتصامات وإضرابات وهتافات ذات سقف عال، أخاف عليك يا مؤنس، أقول له، فيبتسم، لماذا تبتسم؟ يجب أن تكون حذراً، تغيظني ابتسامته.

- أحذر من ماذا؟ لم يعد يهمني شيءٌ، لا أريد غير فضح الطاغوت، أن أقيّضَ فساد الذين عاثوا بهذا البلد، ألا تثيرك عمان وجلعاد ومأدبا والمفرق!

- أجل، ولكن كن حذرا يا صديقي، أنت تتهور في طرحك، هم يراقبونك، ولا أريد فقدك.

- يراقبونني، أنت تعرف أنهم جبناء، هم أجبن من قلمك وحروفك، وأصغر من كلمتي ومواقفي.

- أعرف ذلك، ولكن يجب أنْ تكون ذكيا، لا ينبغي أن تكون لقمة سائغة لهم، تحرك بخفاء، وقاتلهم باحتراف.

هو لا يحذر قط، لا يستمع لما أقول، جريء، لا أعرف من أين يأتي بهذه الشجاعة، (قلبي ميت يا أحمد)، هكذا كان يقول عندما أحدثه عن الحذر، ولكن كيف يموت القلب؟ أداعبه، اليأس يا صديقي يجتاحني، أنا ما عدت

أستطيع المجاملة، هؤلاء الناس فقدوا الإحساس، لا تأخذهم الرحمة بالمساكين الجياع، كلّما زادت ثرواتهم زاد جشعهم، وتفننوا بالسرقات، إنهم يسرقون لقمتك ولقمتي، ينزعون الفرحة من عيون الشعب ويهدونها لآلهتهم، هؤلاء يجب أن يعاقبوا، لا أستطيع أن أكون حذراً، أنا زوبعة في وجوههم، انتصار على عهرهم وعلى جلاّدهم، أنا ثورة بحد ذاتها، ثورة (الغلبانين)، البؤساء، من لا حظّ لهم، الذين سحقتهم السلطة، الذين جوّعهم سوط السلطان، أنا كل هؤلاء.

يعتريني شكّ باتجاه الكلمات التي أسمعها، هل سمعتها فعلاً، أحسّ بعطل يصيب عقلي، فأسهم قليلاً، فينبهني مؤنس.

- أحمد، ما الذي تقوله، لماذا تشتمني.
- ها، أنا شتمتك، هل تمزح معي.
- أجل، لقد شتمتني، أحمد، يجب أن تراجع طبيبا.

أشتم إذن ولا أتذكر ما أقول، أنسى مفاتيح بيتي عند البقال وأنسى باقي النقود، أخلط المواعيد، وتغيب عني أسماء أصدقاء الطفولة، هل سأفقد ذاكرتي؟

ذاكرتك (مطعجة)، لقد دهستها مركبة نقل عام، هكذا كان مؤنس يسخر من ذاكرتي، ونضحك، ولا أتذكر جيدا.

- أنا أنسى يا صديقي، هل سأفقد الذاكرة، أقول حزينا ووحيدا.

- "لكم أنت تنسى، عليك السلام"[6]... ننطقها سوية.

(6) مقطع من قصيدة للشاعر الراحل الأردني تيسير السبول في ديوان "أحزان صحراوية".

الدرجة الرابعة والعشرون: خديجة

أختي الصغيرة في بطن أمي..

هكذا قال لي أبي عن بطنها المنتفخ، أسأله متى ستخرج وماذا تفعل بالداخل، يحاول التهرب لكنني أصر على أسئلتي: ألا تختنق في الداخل، وأتحسس بطن أمي، أغني لأختي، ولا أسمع ضحكتها، أهو ذكر أم أنثى؟ اسألها، تقول أمي: (اللي من الله كويس)، ويتجهم أبي: (قولي انشا لله صبي)، ولا أفهم سبب غضبه، ربما هو لا يحب البنات، من لا يحب البنات!

خديجة هي أكبر أخواتي، تكبرني بعشرة أعوام، خديجة فتاة خجولة، حسناء، لها شعر طويل جدا، وعيون واسعة زهرية، هي لا تشبه أمي، يقول أبي أنها تشبه جدتي، يتبجح بأنَّ أهل أمي قبيحو الشكل، ويريني صورة أمه

وهي صغيرة، قبل أن يخطبها جدي، خديجة إذن شبيهة جدتي، تلبس ثوباً أحمر اللون، وتمشط لها أمي جدايل، أتعلق بجدائلها، شعرها أسود.

أبي يحب خديجة، يجلسها على حضنه، يقول لها: سأزوجك سيد الرجال، ولا يعجب أمي هذا الكلام، (طيب قول تدرّسها، مِلحقة عالزواج). تقول أمي باستهتار، ولا يعيرها أبي انتباها، (الزواج سترة يا مره، شو بدها بالدفاتر، خليني اشوفلها جوز يستر عليها)، وأنا لا أفهم، ولا تفهم خديجة، ونخرج لنلعب بالكرة.

كبرت خديجة، وأحبتني كمثل أمي، خديجة امرأة الآن، شاهقة القوام ولها ثديان كثديي سحر بنت البش مهندس، تحملني على ظهرها، تهزني إذا بكيت، وتشتري لي (المصّاص)، أسرّ لها كثيرا وتسمعني، تنصت لي جيدا هي ولا تقطع كلامي، خديجة تحب بائع البوظة الذي يخفي رأسه بطاقية زهرية، يتجول بين البيوت ويبيع (الأيما[7])، وبسبب حبه لخديجة فقد كنت أحظى (ببوظة) بالمجان، يقول بائع البوظة أن أختي ملاك من السماء، وأطلب منه أن يزيد حبات (البوظة) بصحني، ما الذي يدعو هذا الشاب لهذا العطاء بدون مقابل؟ أسأل خديجة فتقول: إنّه الحب، هذا سرّ بيننا، لا تتفوه بأي كلمة، إذا سمع أبي سيقتلنا جميعا.

---

(7) الآيس كريم (مثلجات).

الحب، وما الحب يا خديجة؟

- الحّب أن تخاف على الشخص الآخر وأنْ تفديه بكل شيء، أن تحس بحبيبك حتى لو كان بعيداً عنك، تقول خديجة بهمس.

- أجل فهمت، وأن تعطيه ما لديك بدون مقابل، هل هذا صحيح.

- تقريبا، تجيب خديجة ويتورد خداها عند وصول بائع البوظة.

- لقد اشتقت، (زمان القمر ما بان)، يقول بائع البوظة ثم يغرف لي حبات كبيرة ألتهي بأكلها.

- حامد، لا أستطيع أن أقابلك طويلا، أبي سيشك بي. تخفض خديجة رأسها بخجل.

لا أدري لماذا أحس بالحزن لرؤية حامد، لا أذكر أن رأيت وجهه من دون حبات العرق، حتى في فصل الشتاء، يجهد حامد في حمل برميل البوظة، حبته قليلة كما يحلو لخديجة أن تسميه، أقول لخديجة: هل يجوز لمن حبّاتهم كبيرة مثلك أن يحبوا من حبّاتهم قليلة مثل حامد، فتضحك خديجة حتى تسيل دموعها، وتقول: (ممكن، قلت لك إنّه الحب يا بني).

لا أذكر أني أحسست بهذا الإحساس مع سحر، لكنها أعطتني طعاماً من دون مقابل وكادت أنْ تغسلني يومها، إذن فسحر تحبني، وهي ذات حبّة قليلة، وحبّتي أنا كبيرة، فلماذا لا أحبها، أذكر أنّنا كنا نلعب لعبة الموتى التي علمنا إياها أحد الأولاد، نلف بعضنا بأشرطة بيضاء، فيتلاصق جسدانا مع

بعضهما البعض، ينبغي أن يغطينا الكفن بالكامل، أنا وابنة الحاج أبو محمد ويلفنا هاشم ابن الجيران، ويبقي فقط مكان للنفس، أنا ملتصق بالفتاة بالكامل، وبرغم عدم قدرتي على الحركة إلا أنني أشعر بتفاصيل جسدها تعبث بجسدي، تشتم رائحته وتمتص رحيقه، هي تطيب لها هذه اللعبة، وهاشم بخبث يتداور معي الدور، وألفهم كأنهم أموات، لكنه يرفض أن أموت معه، يقول الرجل يموت بالأنثى ولكنها لم تحدث أن يموت الرجل بالرجل.

خديجة، أختي التي تحب حامداً، العاشق الذي يعرق جبينه إثر حمل برميل البوظة، أصبحت عانساً، هكذا تقول أمي وتطلق تنهيدة لا أحبها، أمي (تولول) عندما تحس بأن أمراً جللاً لن يقضى، خديجة، التي هامت بحامد، أصبحت عانساً، وأسأل أمي، هل سأصبح عانساً مثلها عندما أكبر، فتصيب أمي حاله شرود، تتمتم في أذن خديجة، توبخها، هل مسّك هذا الولد؟ فتحمر خدود خديجة وتتهرب، وتصر أمي، تمسك خديجة من شعرها، وتجرها، كنت أعرف ذلك! هل تودين أنْ أموت مبكراً، سيقتلك أبوك ويقتلني، اللعنة عليكما، خديجة ذات الجدائل، خانها القدر، تخلى عنها بائع البوظة، لم يره أحد منذ ذلك الحين، تقول خديجة: (منه لله)، لقد أحببته من كل قلبي وأعطيته كل ما لدي، واختفى حامد. وضاعت أمنيه خديجة.

الدرجة الخامسة والعشرون: هل أكره عمان؟

اختفى مؤنس.

غاب أكثر من عشرة أيام متتابعة، لم يسمع أحد عنه شيئاً، بحثت عنه في كل الأماكن التي أعرفها ويعرفها، مقاهي عمان، حاناتها، السينمات، بيته المهمل، بحثت مطولاً، لكنني لم أجده.

كدت أن أفقد الأمل، ساورني شكّ بأنه حلم، وأني لم أعرف أحداً بهذا الاسم، نزق أصابني، هل قدري أن يغيب الأشخاص الذين أحبهم، أمي، أختي خديجة، والآن مؤنس، كنت منذهلاً، كارها لعمان في هذه اللحظة، عمان أخذت مني الكثير، عمان امرأة تتزين بالليل ويختلط مكياجها في الصباح، وتعالجه على عجل لأكشف زيفها، أريد أن أركن لجدار ما، أود أن

تنتابني فرحه، أنا مستودع من الحزن، سأتقيأ من فرط سأمي، ويظهر مؤنس أمامي كشبح طرد من الجنة.

- مؤنس، أنت حي، اللعنة عليك؟ أقول مندهشاً.

يصمت مؤنس، شعره مبعثر ولحيته نامية بشكل مهمل، فمه مائل إلى الجهة اليمنى، وثيابه ممزقة، مؤنس، ما الذي حل بك؟ ولا يجيب، أسنده من كتفه، أجرّه إلى شقته في جبل اللويبده، أحس بحاجة إلى الصراخ، أود أن أصرخ بأعلى صوتي، أود لو يحالفني البكاء فأبكي، مؤنس لا يقوى على المشي، يتوقف هنيهة ويؤشر لساقه، هل تؤلمك، هل سقطت من فوق عمارة، أجبني يا رجل لقد فقدت عقلي بغيابك ويبتسم، لا، لقد اعتقلوني، وعذبوني؟

- اعتقلت، ها، لماذا، متى، لقد قلبت الدنيا عليك ولم أجدك.

- أجل، اعتقلت على إثر مسيرة، لقد أثرت حقدهم هذه المرة فأحبوا إكرامي. الأوغاد.

الدرجة السادسة والعشرون: ما عدت أفرق بينهم!

أراقب مؤنساً يوم الجمعة من أمام مسجد الحسين..

يصلي الظهر ثم يخرج مع أفواج المصلين، أنا أراه ولكنه لا يراني، في الواقع لا أحد يراني، فأنا مجرد نكرة، شبح يسير في طرقات قاع المدينة ولا يؤول في آخر النهار إلا إلى مجاريها وزقاقها التافهة، أتابع مؤنساً وهو يوزع بعض الأوراق على الناس المصطفين خارج المسجد، له لحية خفيفة، وينطبع فوق جبهته نقطه زهرية اللون، كنت دائم السؤال عن هذه النقطة، أود الحصول على واحدة مثلها، ولا يغضب مني مؤنس، يقول الله يعطيك واحدة إذا تبت إلى الله وصليت وسجدت له، ولكنني أريد الحصول على واحدة من دون صلاة، هل يأذن الله لي بذلك؟ أقول له فيضحك بحزن.

يرفع مؤنس علماً أخضر مكتوباً عليه أحرف لا أستطيع فك لغزها، ويعاون بعض الرجال بإمساك أقمشة مكتوب عليها بخطوط كبيرة، يهتفون بصوت واحد ضد اليهود والحكومة والفساد، ما الذي دهى مؤنساً ليهتف ضد الحكومة، ألا يخاف من الشرطة، ألا يخاف أنْ يحبس في الزنزانة مثل أبي، الزنزانة مظلمة وحزينة، هكذا وصفها أبي عند خروجه، والسجانون لا يرحمون السجين، ألا يدرك مؤنس ذلك، الشرطة تقف بصف منتظم أمام صف المصلين، يلبسون اللون الأزرق دائما، يحملون عصيًّا ولكنهم لا يتحركون، هل سيضربون مؤنساً وجماعته، انتظر، هل أنبه مؤنساً لعدم إغضابهم، فأندس بين الجموع، لا أستطيع الوصول إليه، سأشده من يده وأطلب منه أن يسامح الحكومة على تصرفاتها، هو يقول إنهم سارقون وإنهم نهبوا البلد، فليكن، سامحهم يا مؤنس، سيضعونك في زنزانة سوداء مثل أبي، أبي يستحق ذلك، ولكن أنت لا تستحقها، مؤنس، أرجوك ابتعد عن الشرطة، سيضربونك. ولا يبتعد ويهتف بأن الفساد من صنع أياديهم وأن الحرية لن تكمم وأنَّ فتح الله قريب، مؤنس لا يوجد أي فتح قريب، أستحلفك بالله أن تدع الشرطة بحالهم، وتشتم اليهود كما تشاء، يلعن أبو اليهود، أشتم بصوت عال، ويضحك مؤنس ويقول: ما عدت أفرق بينهم يا سحنون، ما عدت، ثم يختفي بين الجموع ولا أراه.

الدرجة السابعة والعشرون: خفةٌ تحتمل

أنا من تراب..

أغنيتي أنت، أحب أن أردّدها، أغني وحيدا، أرفع صوتي، منبتي من الطين، طين لا غير، جسدي يحن، يهرشني، أنتبه له، هي بجانبي، هل لي بقطره ماء، أريد أنْ أقبلك، فتهرب وتحتجب، وأبحث عنها في ذراتي وأنفاسي، تموء كقطة، لقد خدعتك، أنت لم ترَني مختبِئة بين دفات قلبك، لا لقد رأيتك، أنت مختبئة بحدقة عيني، أقول منتشياً برائحة الصنوبر، رائحتها، أنت تسرين بدمي، امرأة شهية، ذات قامة طويلة، تطالين السماء وتعانقين السحب وتموء مرة أخرى، أريد أنْ تراقصني فوق الغيوم، أود أنْ أجعلك أسعد كائن أرضي، وأضحك بملء فمي، تقصدين كائناً فضائيّاً، نضحك سوية ثم نسبح بين الغيوم وننام.

أنا منطفِئ مرة أخرى، لماذا أخاف الانطفاء، هل سأفقد روحي؟ روحي أراها تهيم بين المباني، أنام على مهل، روحي تطير، تسافر إلى بلدان أخرى، تنتقل من جسدي، جسدي وعاء فقط، ماذا سأكون الليلة، لربما شجرة فستق في جبال بعيدة، فستق! لماذا الفستق بالذات، أنا غزال شارد في غابة، أركض غير مدرك لمن هم خلفي، أركض ولن يصيدني القدر، أود أنْ أحلق فأصير نسراً، أنا أطير، الريش يدغدغ صدري، والهواء يلفح أنفي، أحس بخفة، خفة ممتلئة بالحنان، الكون حنون علي، يرفعني، يزفني، أنا أحلق، أتمايل، أرقص، سأرقص الآن في السماء، سيسمعني الله، سأظل أرقص وأصير فراشة، أحط على الزهور، أمتص رحيقها، وأغني، أنا الفراشة الحالمة، خفيفة، تأخذني الريح لجهة الجنوب وأطير للشمال، فراشة ملونة بألوان جميلة، فراشة حب وسلام.

ثمة معبر خفي بين صحوي وجنوني، معبر ضيق، أحس بخيط رفيع يتـأرجح عليه عقلي، هل ينقطع هذا الخيط ذات مرة، أقول لـسحر، هل تحبينني مجنوناً، فتبتسم وتزيح شعرها عن عينيها وتغيب عني، هل نشعر بهذا الألق الذي ينفجر بدواخلنا كلما زاد غضبنا، أنا أشعر، وهج غريب وفرحة لا تضاهى، عالمين مختلفين، إن شاء لك أن تنتقل بينهما فأنت محظوظ، كيف تنتقل، أغمض عينيك، فترى لحظة انفصال، (أنت بخفة تحتمل) وهي

عكس ما قاله كونديرا[8]، قد تقفز ألف ميل في لحظة زهو، قد تمسك الدنيا بقبضتك، أنت شاعر الآن وقد تكون ذا صوت شجي بعد حين، جسدك كبير إذا أردت ذلك، وقد تصبح بحجم بعوضة إنْ راق لك الصغر، أنت تعرف كل لغات العالم، تطوع الحروف ولا تهمك المعاني.

تتيه بقلبي، تتوغل في شرايينه، تعبث مطمئنة، لا أقاطعها، ترفقي بي، أهمس بأذنها: هل تدركين أنك تدغدغين مشاعري! تبتسم وتشيح بعينها عني، ليست صدفة أنْ تـأتي في هذا الوقت، صباحا مع صوت فيروز وفنجان قهوة وطعم سيجارة أخيرة من ليلة البارحة، هل تأبهين بي يا فتاة، لا آبه، تقول ضاحكة، واحب ضحكتها، تتوغل اكثر فاصاب بالاغماء ويحترق مني القلب، متصوف بحبك أنا، أتهجد كعابد قض مضجعه الحنين، عيناي لا تنام، أقول لها: توقفي الآن، ما عدت أحتمل، ولا تتوقف فينفضح سري.

عبق، وسيرة لا أعرف كتابتها، أحسها، حاضرة في رأسي، تنام معي الليل ولا أنام وتختفي، أينك! يا من أطفأت نور القمر، أريد أن أسالك سؤالا، هل ينام العاشقون، هل تغرهم ومضات الحنين وينسون جسدهم، لا تأتي، أنا وحيد، قلبي ينبض بشدة، ينتابني عشق، قشعريرة تؤنسني، أنا مائل إلى الاصفرار، هكذا تقول المرآة، المرآة تكذب دائما، تنقل الحقيقة مزيفة،

---

(8) الروائي التشيكي ميلان كونديرا في روايته "خفة الكائن التي لا تحتمل".

معكوسة الاتجاهات، لا أثق بالمرايا، أحسّ بخديعة تكمن في زجاجها، أتوجس لهذا الانعكاس، إنّها صورة وجهي، أنا لست هكذا، من عبث بعيني الحالمتين، من أهداني تلك التجاعيد أسفل منهما، وذلك الحزن في بؤبؤ العين اليمنى، من غزل هذه العقدة بين الحاجبين، حتماً هي المرآة التي تقتص مني، تقول سحر: هي أجمل عقدة، أحبها جداً، وتمسد عليها، سأنفجر، قلبي وعاء لا يحتمل الفرحة، هل للفرح حدود، أسألك، أجل، له حدود وبعدها يتلاشى القلب، ترد باستحياء، وهل للحزن حدود، أسألها، لا، الحزن أسطورة غير حقيقية، أسطورة يحبها بنو البشر ويغرقون بمائها وتجرفهم لمسربها، إنهم مجانين، هل تتفق معي، تزم شفتيها، أها، أقول ثم تلثم شفتيَّ وأنجرف بحبها.

الدرجة الثامنة والعشرون: برميل الغسيل

بالأمس شعرت بأنَّ ذاكرتي معطلة بالكامل..

حركت رأسي وأمسكت القلم، سأكتب، ماذا أكتب، ما الذي أعرفه في هذه الدنيا عن الكتابة؟ من أنا؟ ما الذي ألبسه؟ ولماذا أمسك بقلم؟ وهل هذه الصور المعلقة على الجدار لي؟ لماذا أنا هنا؟

سأختزل ذكرياتي وأكتبها، لن أطيق أن أفقد ذاكرة أمي وطيفها، أنا معجون من ذاكرتها، أمي، كم أود لقاءَك، كم يهزني إليك حنين، كم كنت أرتاح على صدرك، وكم ينقصني دفء حنانك.

الصداع يفترش رأسي، يعيث بالشق الأيمن منه، أنا لا أنتبه للوجع، أتجاهله، أجل، أحس بمعركة بيني وبينه، أصرخ أحيانا به، لكنه لا يسمعني، يبتزني صمته، الصداع مؤامرة فاحشة ضدك، قد يكتب لها النجاح وقد

يكتب لك النجاة، أنا أنجو دائما، لا يقهرني الصداع، يحرث دمي، يأكل ما تبقى من الأفكار، أكره نفسي، لكنه لا يقهرني، أنت، أيها الذي تقف فوق محراب دمي، لن أكون تابعا لك، سأتعذب بوجع لكنني لن أعترف بوجودك، أنت لا شيء، أنت مجرد هم، وهم لا غير.

أنت لا تصلح لشيء، مجرد صعلوك تائه بين حانات عمان وأزقتها، جرذ يختبئ بمجاريها العفنة، تنبح كل يوم ككلب شريد، تهيم غير عابئ بأبيك العجوز، (عيب! عيب عليك!). يقول أبي، ولا أطيق الاستماع إليه، أبي، الرجل الذي خذلني لثلاثين عاماً يتذمر مني، يلوذ بحديث آخر، لا يكل هذا الرجل عن تحطيمي، يؤنبني على غيابي عنه، أبي، الرجل ذو القلب القاسي، الذي يتعكز على عصا ويضع طقم أسنان، يفترش رأسي، لا يريد الرحيل، أنت عاق، بدليل ديني، يئن بحروف تلدغ قلبي، ما الذي أتى بك بعد كل هذه السنين، يتساءل، أنت طردتني، أجل أنت قتلت أمي، هذا جوابي، ودعني من أحاديثك النبوية التي تحفظها، أين أمي؟ أسأله فيتعكر مزاجه، أريد أمي الآن، أمك ماتت، ماذا حلّ بعقلك، أحمد، انظر لنفسك، أنت مجرد (جربوع)، هذا جراء إهمالك بي.

أبي يقتص مني، أحسّ بأن عقلي سينفجر، أود البكاء على صدر أمي، جئت خصيصاً كي أراها، هل أمتَّها يا أبي، أودُّ لو تقول غير ذلك، قل إنَّها ذهبت إلى السوق، قل ذلك، ولا يقولها: أمك ماتت، وشبعت موت، كيف

يشبع الناس من الموت؟ هل هو طعام، أود أن أقتصَّ منك يا أبي، هل أخنقك كما كنت تخنقني، هل أحضر برميل الغسيل؟ أتذكره، لونه أزرق، ورائحته زكيه، لم تعرف أبداً سرَّ بقائي على قيد الحياة، أنت أخذت عقلي، لا أستطيع التركيز بشيء غير أمي، قلبي ممتلئ بها، هي حياتي التي سرقتها.

الدرجة التاسعة والعشرون: هل للجمال مقياس؟

أقول لسحر: أظنّ أننا خدعنا بما نقله لنا الفنانون وشعراء الغزل...

وبما اختزلته ذاكرتنا، أجل، الجمال الذي نعرفه هو مجرد صور طبعتها أعيننا وكررتها عقولنا، فقلنا عن هذا جميلا وعن هذا بشعاً، هي نسبية تحولت إلى إطلاق بمؤامرة لم نعِها، ثم تبعناها كعبيد دون أنْ نفكر بها، فالجميل في طياته يكمن قبح، وكذا القبيح يكمن فيه جمال وبهاء، كم ينبغي أنْ أقول لك إنني أؤمن بجمال نسبي وكون نسبي وعاطفة نسبية، لا شيء مطلق في الكون غير الله، وحده الغامض المكنون عنا، وحده من يملك الجمال المطلق ومن عداه فهو نسبي بامتياز.

- أحمد، أنت تخيفني بكلامك! ترتجف شفتاها.
- خذي مثلاً، أنت.

- أنا، ماذا بي؟

- لو خلق الله لك ثلاثة نهود، هل ستكونين جميلة؟

- ثلاثة نهود، أحمد، هل أصاب عقلك شيء؟ تنظر سحر لأسفل صدرها.

- لا، إنَّما أحاول تصحيح فكرة الجمال الوهمي، الجمال الذي التقطته أعيننا عنوة عنا، وحفظته عقولنا قسراً، وبتنا مفتونين بمقاييس وحدود واهية، هي فكرة استلاب عقل لا أكثر، وهي تشبه فكرة الاستعمار وتقسيم الدول إلى دويلات، هي تحجيم للذاكرة وإعطاب للخيال، بناء جدران حول كينونة العقل وامتهان الفكر.

- تقصد أنَّ الجمال ليس كما نراه ونحسّه!

- أجل، تماما، صور قد تتشكل وفقاً للنص البصري الذي يحتمل تغيره في أي لحظة، ووجوده لا يعني بالضرورة جمود هذه اللحظة، بل لا بدَّ للعقل من تفسيخ الحدث بشكل نسبي ورسم مقاييس تليق بالصورة المرسومة.

- أنا لا أفهم من كلامك شيئاً، دعنا من ذلك وتعال قبلني.

الدرجة الثلاثون: شعرة وتنقطع

الوقت ظهراً..

نسائم أيلول تنبِئ بمطر قادم، يمتزج يومي بقشعريرة دهشة كلّما غاب فصل وجاء فصل جديد، لا أحب الانتقال تدريجيا نحو الشتاء، أود القفز من فصل لآخر، بدون درجات أو سلالم، ربما يسعفني الطيران، أو غياب الدهشة، أو الكتابة على ورق أبيض:

الدهشة تقترن بحالة الرتابة التي تعيشها، كم شاهدت وشعرت وكم بنى عقلك من خيالات خلال حياتك، فإن اكتملت الدهشة حل الملل وسادت حالة كسل العقل ومشاهد التثاؤب، الدهشة لدى الطفل تكون في أوجها، وقد تثير حفيظة الطفل شعلة عود كبريت فينبهر ويضحك، وهي مماثلة لدهشة إنسان الكهف الذي أدهشته النار لأول مرة، وطار بها فرحاً، هي

مرتبطة أيضاً بغمرة سعادة، فسعادة سائح يرى (هرم خوفو) لأول مرة تختلف على النقيض مع سأم قاطن للشارع المحاذي لهذا الهرم، فقد رآه آلاف المرات فتحول إلى حدث رتيب في حياته اليومية.

أنت تندهش لأنَّ ذاكرتك تحتمل سقفاً أعلى من الأحداث، وعقلك قد يستوعب فعلاً غير عاديٍّ في لحظة الحدوث، لكن ذلك مقترن بمدى دهشة الحدث وتوقيته، فلو حامت طائرة في سماء حضارة ما قبل الميلاد، لسجد الجميع لها ولكانت آلهتهم التي يقدمون لها قرابين بشرية لتعفي عنهم ذنوبهم وهي ضمن حاجز العقل المصطنع، الآلهة التي تنبت الزرع وتبعث الجدب وتحيي النفوس وتنهي الأرواح، ولو حدثت أحدهم عن جهاز تلفون (متنقل) بدون أسلاك في فترة الخمسينيات من القرن الماضي لنعتك بالمجنون، ولو رآه بأم عينه لكانت دهشته مضاعفة، لكن الشخص ذاته قد يحمل جهازا يشغل الفيديو في هذا العصر بكل رتابة عقلية وبطء في حركة الدهشة.

رجوع العقل لمربعه الأول، وانسدال ستارته بالجنون، مشابهة لحالة الطفولة تماما واتقاد جذوة الدهشة، فأصل حالة الجنون هي الجديد الذي نتفاجأ لرؤيته أو السماع به، وانقطاع شعرة مشدودة تربط العقل بالواقع أو انهدام جدار مبني حول العقل هي ما نسميه جنون، فإن انقطعت الشعرة أو انهدم الجدار فقد تحرر العقل من ضوابطه، فلا وجود حينها للعيب أو

السياسة أو الدين أو الأخلاق، ستذوب كلّها، فهي غير مهمة، وهي بالأصل من خلقت الغمامة حول العقل، هي دخيلة على العقل الأصل، العقل الهائم، الذي لا تحده مسافة أو بنيان.

حالة الإبداع مرتبطة بانهيار تابوهات العقل كلها، لن يكون إبداعا إذا لم يتحرر من طغيان التقاليد والأعراف، وهي مرتبطة تماما بحالة الجنون السابقة، المبدعون فكّوا شيفرة الحصار وتخطوا هذه العوائق، هل نسميهم مجانين؟ لقد أرقني هذا السؤال، أيعقل أن يولد من المجنون مبدع، ولم لا! ولم نعم! كلاهما حالة محتملة في ميزان العقل والجنون، كثيرا ما ننعت من يأتيك بفكرة غريبة بالجنون، فالعقل هنا مؤطر لا يقبل الجديد، وهو يتهم كثيراً، ويتذمر أكثر، هذا العقل لا تتوقع منه إبداعٌ بل كسل، إذاً فحالة الإبداع مرتبطة بلمسة جنون، وتهور ومخاطرة قد تهلك صاحبها، لكنّها قد تنجيه ويبدع.

الدرجة الحادية والثلاثون: مُشتبهٌ بك

معراج العقل بطيء..

ينسدل مندساً في الرأس كهودج (بعير) هدّه التعب، العقل سرّ لا نود أنْ ينكشف، كنز مدفون بين حنايا الرأس، لكننا قد لا نعي أهميته إلا إذا تعب، أيتعب العقل حقاً؟ هل يتوقف عبثاً، أيصيبه الملل من جريان الدم داخله، أم من ثقل الذكريات، أم من طاقة سلبية تتلبس صاحبه ويتوقف عن التفكير، يغيب بلا وداع، يراوح آخر الذكريات، يتعكز على ما تبقى من لحظات جميلة ثم يفقد بيرقه.

- هل تدخن؟ يقول الطبيب وهو يضع أصابعه فوق فمه كمن يشعل سيجارة.
- اجل، أنا مدخن عتيد يا حكيم، أفرغ شهوتي في السيجارة.

- شهوتك، أنا أسألك عن الدخان، وليس عن حياتك الجنسية، أرجو الإجابة عن سؤالي فقط.

- يا له من طبيب غبي! كيف سأشرح له أنَّ السيجارة في بعض الأحيان توازي أنثى بكامل جمالها، كيف سيفهم بأن عقلي لا يأبه بالدخان إنْ كان مثواه الحب والأمل، لا تهده "نارجيلة" أو لهاث، ما الذي يعرفه عن العقول وما بها، أين يختزن إذن الحب والمشاعر؟ أين يكمن الحزن والألم، وكيف يقوى على الكره والقطيعة؟

- أجزم أنَّك لا تدخن أيّها الحكيم، هل تدخن، أقول له ويتسفزه كلامي.

- لا أدخن يا أخي، هل تدرك أنَّك مشتبه بمرض في الدماغ يا أحمد، هل تود أنْ تترك سخريتك جانبا لبعض الوقت.

- مشتبه بي، سخريتي هي ملاذي أيها الطبيب الحالم، هي مفصل جنوني الذي لا أود أنْ أفتح له الباب، يقف خلفه كل يوم ويدق بعنف، يراودني شعور بأنَّ أفرج له الباب على مصراعيه، أيرضيك أنْ أجن؟ أما مرضي الذي تدعي وجوده فأنا لا أعترف به ولا أعترف بك قط.

- أحمد، تخطيط الدماغ لديك ينبِئ باختلاط متدرج في الذاكرة قد يكون بسبب ضغط نفسي أو إجهاد عقلي، أنت معرض لفقدان الذاكرة في أي وقت إذا لم تعالج مبكراً.

- فقدان للذاكرة، ها، مرحى به، هذا تماما ما أبحث عنه، أنْ أتخلص من عقلي إلى الأبد.

أخرج من عيادة الطبيب، ينتابني قهر ووخزات في أسفل رأسي، ضربات قلبي تتغير مع تغيير اتجاهات مسيري، أود المشي، أنْ أتنشق رائحة عمان، هل سيتوقف عقلي فجأة أمْ أنّه سيعطيني بضع الوقت، أود الحديث، سأكلم مؤنساً، يرد متلهفاً على طرف السماعة الأخرى:

- أحمد، وينك يا أخي، ليش ما حكيت معي؟
- أنا بجبل الحسين، شفت الطبيب هلا.
- شو حكالك، انشالله خير.
- قالي إني تمام وصحتي زي الفل.
- والله، طيب يعني ممكن ندخن (نارجيله).
- طبعا، وحشيش إذا بدك.
- طيب هلا جايك طيران.
- بانتظارك في قهوة أبو صطيف.

لقد كذبت على مؤنس، سأدخن معه بكامل ألم رأسي الذي لن يحد من حياتي، سأعيش برضاي أنا وليس برضى الطبيب، فإن شاء عقلي فليتوقف ويحسم أمر حياتي.

أمشي بدون توقف، لن يوقفني أحد، هنا تفيأت مع سحر ظلال شجرة وهناك أسفل الشارع داعبت يدها، ترى ما الذي تفعله الآن؟ كيف سأقول لها بأن حبيبها مشتبه به، وأنَّ الذكرى الباقية قد تختفي في أي لحظة، كيف سأحكي لها قصيدتي الأخيرة وأن عقلي ما عاد يحتمل، تجتاحني رائحتها فيرتاح عقلي وأشعر بالسكينة، لا أصدق كلمة مما قاله الطبيب، هو لا يعرف أنها تسري في شراييني، لا يأبه بأن قلبي وعقلي لها، لا يدرك أنَّ وجع الحب هو لذة بحد ذاتها، كيف يدري؟

الدرجة الثانية والثلاثون: ابقوا هناك وسأظل هنا!

ما بال هذا العمر؟

لم لا يأخذ بعين الاعتبار اعتباري، ما له لا يرتجف لحضوري، جامد كجلمود صخر أبله، لا يدري ما أصابه، أحمق بمحض إرادته، هل هو الوقت من يحرضه؟ سأسأل الوقت عنه، لا شك أنّه حرك ساكني، من أحال فيّ العشق إلى هيام، كم تنقصني الخميرة، تلك التي يضعونها على العجينة، هي بعينها التي تخمر النبيذ، أنا من نبيذ، وأصلي من كحول، أطلب كرم الخميرة وجود الكحول، متعب أنا وأريد السكون، توازن، هدوء، أنْ أتوحد مع الليل، أن أستوي مع برج النجوم.

ليل وفقد وحنين، هكذا أود أن أنهي ليلتي، لا أود أنْ يقاطعني أيّ أحد، سأكتب ما شئت، على دفتري البالي، تحت سقفي الذي ابتذله الآخرون

كدرج لهم، استوطنوا أعلاه ولم يأبهوا بآهات نبض قلبي المتعب، لم يحاولوا حتى اقتفاء هوية من يسكن تحت هذا الدرج، غضوا البصر عني وأشاحوا بقلوبهم بعيدا، أنا سحنون، ذو القلب الحاني على كل البشر، أعرف بأني ذو ملامح غير مفهومة وقلب نيء وعود نحيل، أعرف ذلك، أعرف أيضاً بأني ذو أصل لا يعتد به، كغيثارة مكسورة، أسجل وهني، وشجني للمارة، أحاول أنْ أشرح لهم بأن العمر لا يحتمل الحزن، لكنهم يمرون ويتأسفون على حالي، يضحك بعضهم والبعض الآخر يمد لي بضع قروش، هل أنا هذا الشخص القابع بين براميل القمامة، هل ينبغي أن أكون بينها الآن، ويصادفني بضع شخوص أعرفهم، لا أنا لا أعرفهم، يطلبون مني أن أعود، إلى أين؟ ويقولون أنهم اشتاقوا لي، هه، هكذا بغتة، كلماتهم أعرفها، لكنني لا أستطيع تذكرها، أود منهم البقاء وأن يشددوا بطلبهم لي بالرجوع، أضغط على رأسي، هل يعني لك هذا شيئا، فيجيبني أن لا شي يعنيك، وأضحك، تعلو ضحكتي أمامهم، أهزأ من جديتهم وكشرة وجوهم وتصنعهم الذي لا أتعرف عليه، أغني لهم أغنية جديدة:

" تي رشرش تي رشرش"[9] ...

---

(9) أغنية شعبية.

فيضحكون معي، أجل، أريد أنْ أرى أسنانكم، لعلني أتذكر أسماءَكم، كونوا معي ولو للحظة واحدة، لتأخذكم رجولتكم، وتغامروا بما غامرت به، لكنهم يتوقفون عن الضحك، ويتشاورون، وتعلو مقلهم ابتسامة صفراء، هم لا يريدون النزول أكثر، عميقة هي حياتي عليهم، يودون البقاء حيثما كانوا، حسناً، لكم ما تشاؤون، ابقوا هناك وسأظل هنا.

الدرجة الثالثة والثلاثون: أيها العاشق توقف قليلاً

الصديق الذي أطلق عليه مؤنس لقب العاشق الولهان مليء بمحبة لإحدى الفتيات، باسمة، يسميها سما الحب، يحلق بوصفها كطائر، لا يرى غير باسمة كعش له، يهزل جسد عامر أمامنا، لا يأكل إلا القليل، تصيبه نشوه البعاد عن باسمة كلما جلس معنا، يحثه مؤنس على كسر قيد الحب، مؤنس غير مؤمن بعلاقات تأسر القلب، يتجادل الاثنان وأنا استمع لكلامهما، عامر، الطائر الذي لا تهدأ أجنحته عن الرفرفة، الممتلئ بحب متطرف، يقول (إنَّ الحب إذا لم يكن متطرفا فهو وهم لا غير، أنْ ترى بحبيبك وتسمع به وأن تكونا صنوين لا يفترقان، حالة من الهيام، فإنْ فكرت، تفكر به، وإن سهمت تسهم به، وإن فرحت تفرح معه وإن بكيت

تبكي عليه)، ينتفض عامر لردة فعل مؤنس، أحيانا كان يترك الطاولة ويغادر لمجرد قول مؤنس، ومؤنس يضحك بملء شفتيه.

- أيها العاشق توقف قليلا وأعمل عقلك، فالمحبة والكراهية متلازمتان، هما وحدة لا تتغير إلا في حالة التطرف، التطرف يجعلهما مختلفين، على طرفي نقيض. يقول مؤنس موجهاً كلامه لعامر، ثم يتابع كلامه:

- صفاتهما واحدة، لكن تكوينهما مختلفٌ، المحبة مؤطرة بغلاف المودة والتقرب والشغف الذي قد يفضي إلى العشق، والكراهية كذا الأمر، تحيط نفسها بغلاف الصد والغيرة والحسد والغرور وقد تفضي إلى الحقد والضغينة، هل تنقلب المحبة إلى كراهية؟ هذا ما أسميه حالة الوهم، فالأصل لا، ولكن الحالة التي تشكلت وأسميناها حباً هي مقترنة بصفات كثيرة قد تكون حالة غير حالة الحب، وقد تكون رغبة أو إعجاباً أو تعلّقاً، والانقلاب الذي قد يصيبك هو حالة الحقيقة التي كانت خافية عنك، هي الأصل في العلاقة.

أنا أتابع كلامهما، وأبتسم من الحين للآخر لكلمات مؤنس وفلسفته، وذهول عامر وشروده، يبدو عامر منصتاً لكن في حال سهام، تتغير تقاسيم وجهه بعد كل جملة لمؤنس، ومؤنس الفنان الذي يخيط الكلام بحرفية عالية، يشدهك بتعاريج كلماته، وأمثلته التي لا تنتهي، يقول ليقنع عامراً بأن حالته لا تندرج تحت حالات العشق أو الهيام:

- الحب إذا لم ينعكس لسعادة في نهاية الأمر هو مضيعة للوقت، ما فائدة معاناتك وولهك إذا لم يزد وزنك، أو انتعشت تجارتك، وإذا لم يعمّ الرخاء عليك، أي بؤس تحمله حالتك هذه، وما الذي قدمته لك الحبيبة هنا، الوله والهيام والبعد والتلويع، كلها مفردات لا تغني ولا تسمن من جوع، ينبغي أن تكون الحبيبة جالبة للسعد والنجاح والتميز، فبأي شيء تميزت منذ وقوعك بحبها.

- تميز، أنا متميز بحبها، يقول عامر ويحرك شعره الناعم من فوق نظارته.

- يا عاشق اللحظة، الحب جسر نمشي عليه إلى برّ الأمان، فهل تعتقد أنّك تسير إليه.

- أنا أسير إلى حتفي يا مؤنس، أعرف ذلك، وسعادتي بهذه النهاية لا تضاهى.

- تسير ببله كمن فقد عقله، أنت توهم نفسك بهذه المتعة، فأنت اليوم أعمى ومسلوب ومريض.

- مريض، أجل، مريض بحبها، أدري. ولا أريد الشفاء.

الدرجة الرابعة والثلاثون: لتحرقك الآلهة

الدرج يضيق باتجاهي..

أشم رائحة لا أحبّها، يرتسم ظلّ في فم الباب، أنكمش في زاوية الدرج، يندلق جسد طويل، يرج الباب بيديه، أشعر بخوف وبأنّني مخلوق ضعيف، أنا منسحق كقشرة بيض، سحنون، أين أنت؟ ينطلق النباح، لا أود تمييز الصوت، أنا أكره هذا الصوت، صوت أبي، سحنون اخرج أيّها اللعين، أود أنْ أرى وجهك، ولا أنبس ببنت شفه، أدس رأسي بين فخذي (كقنفذ) تعيس وأكتم نفسي، أنا غير موجود في هذه الساعة، ابتعد، استحلفك بالله، أنْ تبتعد، لتحرقك الآلهة بغير رحمة، ولتنهدم عليك كل مباني جبل التاج، أنت وحدك تغيب، يا من نزعت فرحتي، وأخذت آخر ذرات عقلي، ابتعد، فقلبي يرتجف من صوتك الممجوج، ويصمت أبي، كأن الله غيب هذا

الصوت، لم أعد أسمعه، لقد أيقن أنّني غير موجود، أدار جثته الضخمة وانسحب بدون أي جلبة، غاب القرصان، هل هذا سحرٌ، لقد استجاب الله لي، وأخذ القرصان بعيداً عني.

مفتاح الغرفة يضيع من جديد، وأكبت في جوفي صرخة تكاد أن تخرج، أين تضيع هذه المفاتيح الغبية، ولا أتذكر جيبي الصغير، تتغلغل في عقلي أسراب من النمل، ترجّ جمجمتي، تدغدغ فروة رأسي، أحكه بشدة، لا يفهم الناس أنَّ النمل يهرس مؤخرة رأسي ويطحن مقدمته، يتمايل منسحباً بين تعرجات شعري الطويل، أنا أحكُّ غير عابئ بمن حولي، ويقول بعضهم بهمس: (ويلي عليك أحمد)، لقد أكلت بنت المهندس عقله، وزاد أبوه الطين بله، المسكين،..إنجن؟.

لا أجد المفتاح، أنفض جسدي لأسمع الرنين، أقفز، فيرن ويسقط من جيبي، ها هو! لقد مللت من ضياعه كل يوم، ليتني أستطيع ترك الباب مفتوحاً، أن أدع قطط الحارة تؤنس جدرانه ويفيض مواؤها أركانه، لكني أخاف ذا الرقبة الطويلة وذا اللحية البيضاء، كلاهما يخيفني، ولا أترك الباب مفتوحا.

أبي، يصعد الدرج كل يوم، صوت خطواته تَهدُّ بيت الدرج، تطحن قلبي، تحيله إلى غبار، يتلاشى مع وقع أقدامه، أسمعه يكلم بواب العمارة، يعطيه عدة أوامر، يقول له الصعيدي أني تحت بيت الدرج، ويرجوه أن

يقيني هناك، صوت خطواته يرتد باتجاه بيت الدرج، هل سيقتلني، هل سيحضر برميل الغسيل مرة أخرى، يتململ ثم يرجع، أسمعه يؤنب أبا حنفي الصعيدي، يلومه على السماح لي بالمبيت تحت الدرج: (بدك اتطير المستاجرين ولك، شو بده يفتح جريدة مجانين عندي)، ويخف صوته حتى يغيب.

منذ أن رحلت أمي، تقاعد أبي عن العمل في ورشات الدهان، سقط في إحدى المرات من فوق السلم فانكسرت رجله، صار يعرج منذها متخذا عكازاً بيده اليمنى، لمحته مرة عند مطعم هاشم، كنت مستندا على (دربزين) الشارع المحاذي عندما سمعت صوت عكازته، لقد نما الشيب في كل مكان فوق رأسه، تجاعيد وجهه فاضت فوق صباحات نيسان، لم أستطع الحركة، صعدت بعيني نحو عينيه، كان قد أجهدهما التعب، لكن السخرية ما تزال تسطع منهما، وبسمة ملتوية فوق شفتيه، هو هكذا، لا يستطيع الابتسام كباقي البشر، يحرف شفته العليا وتبان أسنانه، أحد أسنانه يعلوه السواد، تظهر ابتسامته كمن يتحضر للبكاء، ينظر إليّ بازدراء.

- أيش يا صحفي، شو صارلك، وين عبقريتك راحت، يقول ساخراً.

ينتابني بكاء، وشجن دفين، لم لا يحضنني كمثل باقي الآباء، لم لا يحن علي، أيسخر مني وأنا منه.

- (وفوق هيك جاي تنام عندي، ولك إذا شفتك بالعمارة، والله بقص خبرك). يقول ويشير بعصاه نحوي.

أبي لا يريدني ببيت الدرج، بيتي، يطردني من عند زوجتي.

- بدي أظل عند مرتي، أنا مو خايف منك!

يضحك بصوت عال، أبي، الرجل الذي تحول قلبه إلى إسفلت، يثيرني بهمزاته، يستفز عقلي الذي ما عاد يحتمل.

- ماشي سحنون، بس والله تطلع صوت، (لأكحشك كحش).

الدرجة الخامسة والثلاثون: أنت البحر

لا وقت.. هباءٌ ما تفعله...

ستهدر عمرك وأنت تفكر بتلك اللحظات التي لم تأت بعد، ستكتب خطوطًا لن تكتمل مطلقاً إلا بحالة انتشاء، أنت! الرابض بين جدران الصمت، المتوسد بقعة ضئيلة من هذا الكون، يكتظ بك المكان لفسحة من الأمل، لفسحة صغيرة قد تخرج بها أنفك رغماً عن الحصار، تخرج بغتة لعبق الحياة وتنشق رائحة الحب، هل تمتلئ رئتاك بهواء نقي؟ هل تود الرحيل؟ هل في العمر متسع للإجابة؟ أجب، هل ينبغي الإقامة هنا؟

تجتاحني كلمات سحر كتيار كهربائي، تَحفرُ في فكري أسئلة لا أستطيع الإجابة عنها، أتطلع لصور كنت قد اختزلتها بذاكرتي، ألوان رسمتها، كتب مررت على عناوينها، شخوص نسيت أسماءها، أوراق مبعثرة على مكتبي،

أصدقاء لم يتركوا لي منهم غير كلمات جافة، بلدان زرتها، جبال، أنهر، صور لعائلتي بالأبيض والأسود، أحرف متشظية وددت أن أقولها، قهر كنت أتجاهل الحديث عنه وعمر ينقضي بلا نكهة.

تجتاحني كلماتها ولا أود الإجابة. أصمت مطولا قبل أن تدثرني بدفء كلامها:

- أتدري، أصبحت مدمنة عليك وعلى البحر، لديك صفات تشبهه تماما، كلاكما يهدر بلغة عزيزة على قلبي، وكلاكما لا يجيب على أسئلتي، أحب ذلك، ههه، وكلاكما عميق، وشفاف. أنت بحري يا أحمد، يا سيد الكلمات لماذا لا تتكلم.

- وأنت ملاذي.

- أنت لا تتكلم كثيراً، أجل، دعني أُبحر في عينيك لعلني أفهم أكثر، تلك الابتسامة التي تؤطرها مقلة عينك، صمتك الذي أحتار بوصفه، أغنية همسك التي لا أود أن تنقطع عن ترديدها، تلك الطمأنينة التي تبثها بقلبي، تداعب أجنحتي وتجعلني كنورس لا يهاب موج البحر، أحلق فوق هيبة زرقتك، لا أخشى البشر وأذوب في مياهك، عذب أنت يا حبيبي وترعش قلبي كلما ابتسمت، ابتسم أكثر، أود سماع ضحكتك، أود أنْ أغرق بجلجلة قهقهتك وارتعاشة يدي فوق رأسك، أود أنْ أتوحد معك، أن امتزج معك كملح ذائب، أن أفرش جسدي فوق شطآنك كرمل مبلل بماء المطر، يهزني

الحنين، وخطوات من مروا من هناك، من انتظروا حبيبا، ومن فقدوا عزيزاً، ينظرون إلى غياهبك، كبيراً، محيطاً، تلتهم الهموم وتبعث الأمل.

سحر، الساحرة التي أحاطت بقلبي سوراً من ورود، تسلبني الكلام، أخاف أن أقطع بهمسي فكرة قد بدأت بسردها، تبتسم، تعرف بأنني سأغادر، تتوقف، تنظر لمؤشر الساعة:

- لقد أسهبت في الحديث، أعلم ذلك، سأتوقف الآن، تستطيع أن تمضي في طريقك.

أهمُّ في الرحيل، ينتابني شوق إليها، أقف بطرف الباب كعابد ينتظر الدخول، تجتاحني مرة أخرى غمرة حبها، أعود إليها، أقف قبالتها، هل تسمحين لي بالمكوث قليلاً، أود أنْ أسمع صوتك (تكة) أخرى، تبتسم، تعلو ضحكتها، (تكة)، تكتين، ستتأخر عن موعدك، اذهب، لا ينبغي أن تتأخر، وأجلس غير عابئ بالوقت وأخسر رهاني أمامها، تقول:

- البحر يمتد بعيداً، لكنه يعود، أنت تثبت نظريتي، عندما تأسرني اللحظات بقربك، أدوخ، يغمى علي، أنظر للبحر، أحسّ بأمواجه تداعب أصابع قدمي، تشدني، أتوجس، هل يغازلني البحر، هل يعشق مثلنا، أيودّ أن أكون معه الآن، ابتسم للفكرة، لكنني أحسّ بهاجس غريب، سكون يفيض مع كل دفقة موج باتجاه قدمي، سكينة تمتص غضبي وشرود يصيبني، يتكلم البحر همساً، لا أود إزعاجه الآن، هو يعلمني الصمت، سأصمت،

ولا يصمت هو، يعلو همسه مُداعباً أذنيّ، تصيبني رعشه خفيفة، كم أود الرقص في هذه اللحظة، وكم أعشق اهتزاز الأفق فوق جسد البحر، سأرقص عارية، أحبّ أنْ أشعر بذلك متشظية بكامل جنوني، سأرقص.

تقوم من مجلسها، ترخي أربطة فستانها وينكشف جسدها أمامي، يا للخالق! أقول مندهشاً، وهي تتمايل مع موسيقى تدندن بها، يكتسي وجهها بحُمرة خفيفة، أنتبه لشفتيها، ترتسم ابتسامة من فوقهما، لا تنظر إلي، لا تنظر مطلقاً، هي تهيم بحالة الرقص ذاتها، يهتز خصرها كشجرة غضة حركتها الريح، تنسدل قامتها كقطرة ماء ندية، عبقة لا أستطيع إيجاد وصف لها، ترقص وتزين الدنيا من حولي، أشعر بأني في جنة لا أود الخروج منها، أهيم، أنتشي، أرقص معها، نرقص سوية، تلتحم أجسادنا ونذوب ويضيع موعدي.

الدرجة السادسة والثلاثون: امرأةُ البطيخ

نسمات برد ومواء قطط قض مضجعي..

أستند من فراشي، أحدهم يصعد الدرج، ويتوقف عند منتصفه تماماً، إنها امرأة بلا شك، أستطيع فك شيفرة الخطوات بسهوله، هي امرأة مترددة، وحيرى كذلك ولربما لا تطيق العتمة مثلي، امرأة برائحة البطيخ تقف فوق سطح بيتي، أشتم رائحتها جيداً، تسند يدها على جدار الصمت ولا تتفوه بكلمة، ينبض قلبها، إني أسمع ضجيجه، يقول قلبها أنها لا تستطيع المكوث أكثر، هي تكرهه، من؟ زوجك، تتردد، وتخطو خطوة للوراء، لماذا تقفين وحيدة، هل أصابك هاجس غريب، من يدع امرأة برائحة البطيخ وحيده فوق درج غريب، كيف ينتهي الجسد الحالم إلى الفراش وحيداً، غريبا دون أيّ انعتاق، أتنفس فتحس بي، تتحرك رائحتها باتجاه بيت الدرج، بيتي، هل

تود إلقاء التحية، في هذه الساعة والكل نيام! تقترب بخطواتها المترددة، تهمس: سحنون! يالله، امرأه البطيخ تعرف اسمي، تنطقه كأنه اسم لملاك، أود أن أسمعها تردده أكثر، لا أحرك ساكنا، سحنون، هل أنت نائم؟ أردت الاطمئنان عليك. تقول هامسة، من أنت؟ أقول من خلف الباب الحديدي الصدئ،، أنا جارتك في الطابق الأول، تقول المرأة المترددة وأشعر ببرد بمسامات جلدي، برد وغربة وحنين إلى حضن أمي، والجدار ما عاد مأوى لي، لا أطيق العزلة أكثر، أفتح الباب بحذر، تتسلل رائحتها إلى بيت الدرج، يا لجمالها، تدس رأسها، أرتبك، لم تود امرأة البطيخ زيارتي، هل تسكن هنا؟ المكان ضيق يا سحنون، كيف تطيق ذلك؟ تنبس امرأة البطيخ ويزداد قلبي وجيباً، إنّه بيتي، وهذه زوجتي، ولدي الكثير هنا، انظري، بضع ذكريات من أمي، ثوب زفافها، مذياعها، حقيبة يدها، رائحتها، أقول لها مندهشاً من قلة اهتمامها... المكان متسع، يتسع للكثير!

تقف امرأة البطيخ منحنية، ثم تجلس فوق سريري الذي صنعته بنفسي، كيف سأشرح لها أنَّ اتساع المكان مرتبط بقلبي، قلبي هو الذي يعطي المكان اتساعه، اشتقت لك! تقول المرأة، لقد ترددت ألف مرة قبل أنْ أتحدث معك، هل تذكرني؟ أنا مريم، انظر جيدا، أستحلفك بالله أنْ تتذكرني، مريم، صديقتك في أول صحيفة عملت بها، لقد ناهزت على الأربعين، وأنا ما زلت مولعا بما تكتب، وأنت، انظر إلى نفسك، مهمل تعيش تحت بضع درجات،

أنت اخترت ذلك، تود أنْ تظل مجنونا، لا تطيق العقل، سحنون، اخرج للحياة، تذكر من أحبوك، وقلمك، وقراءَك، وفلسفتك التي أذهلتنا بها، نحن نحبك.

كم أود أن تسكت امرأة البطيخ، أحسّ بثقل يجثو فوق قلبي كلما تكلمت أكثر، هل ستمكثين طويلا؟ أود أنْ أنام، زوجتي لا تطيق امرأة أخرى، هي تشعر بالغيرة، اخرجي الآن، أقول لها ولا أنظر حيث تجلس، فتضحك المرأة، امرأتك! هل تزوجت جدارا يا أحمد، هذه امرأتك، وتلمس امرأة البطيخ نهد زوجتي، تحرك يدها فوق الجدار وتضحك، يا لجمال زوجتك، كيف تضاجعها، هل هي لذيذه في الفراش؟ وتنطلق بضحكة مجلجلة.

الدرجة السابعة والثلاثون: قصيدة موت

في ذات الشتاء الذي ماتت فيه أمي، ماتت خديجة..

كلاهما قرر الرحيل بدون مشورتي، أمي التي انتشلتني في كل حالاتي، التي دثرتني بعطفها وحبها، المرأة التي طاولت بحنانها السماء، ونثرت عطفها على كل من حولها، تغيب، تغيب بظروف مفجعة، انتحار، تبتلع مادة مخدرة ويندلق رأسها فوق حضني، أسند جسدها الهامد وأبكي، استيقظي، لا أود فراقك، أمي ذات الخمسين خريفا، تقرر الخلاص فجأة، لا تحتمل، تكتب آخر كلماتها على ورق مهمل، تعتذر مني، تقول: قلبي ما عاد يحتمل، سحنون، عليك السلام، ترفق بإخوتك، وسامحني.

هكذا اختتمت قصيدة كنت أود كتابة آخر بيت فيها، لكنها قررت أنْ تكتبها بنفسها، انسحبت وفي قلبها غصة، أغمضت عينيها، مسّدت على

شعرها، كان الجميع مندهشاً من حولي، أبي الذي لم يصدق ما يراه، أخواتي اللواتي أجهشن بالبكاء، جلبة الجيران الذين انتفضوا لصراخ أخواتي، وحدي الذي لم يسمع شيئاً، كانت الأصوات من حولي تتضاءل أمام لحظة الفراق، هي لحظة تغرقك بالشوق، تمتهن قلبك، تعصره، تحس بقهر وعذاب من نوع غريب، أحدثها، فلا تجيب، أمي، هل أنت هنا، أعلم أنّك غادرت، وأعلم أنّك لم تطيقي الوضع أبداً، لكن، لِمَ لم تقولي لي ذلك، لكنت قبلت رجليك، لكنت استسمحتك أكثر، وحضنتك أكثر، وعشقتك أكثر، لماذا رحلت دون كلمة وداع، أو همسة، أنت لا تطيقين الوداع، أعرف ذلك، هو يجرح، وأنت لا تحبين الجراح، سعيد أنا، سعيد لأجلك، كنت تودين الراحة، فأخذتها، هل تشعرين بها، أها، أجزم بأنّك ترتاحين الآن، ارتاحي يا حبيبتي، ولك الوداع، عليك السلام.

هاجس غريب يعتري يومي، أراه كغيمة تسبح فوق رأسي، تطيح بي، تمطر ماءً مكحلاً بالأسود، هاجس يقلقني، أهش بيدي، أحرك سراباً يعتمر جو الغرفة، ما الذي يجعل الهواء ثقيلاً؟ هل هو غيابها الذي لا أطيقه، لا شكّ أنّه هاجس الفقد، والبعد، وهو ما يجعلني لا أطيق الكتابة، ولا أود الكلام أو حتى الصمت، ما الذي يعجبني الآن وهي بعيده عني، (أنا لا شيء

يعجبني[10])، مزاجي كغانية لا تقتنع بما لديها، أحس بأنّي لا أُطاق، وأنني محكوم بليلة فارغة من دونها، هل أسكب كأساً آخرَ، علّه يرجع توازني، أنا مقيد بذاك الهمس، والحنين، آه من الحنين، هو من يأكل قلبي، من يسربلني كطائر في شباك صياد، طائر يرفرف بجناحين مكبلتين، أكظم زفرة في جوفي، أود الصراخ، لو أنها هنا، كنت مسّدت فوق رأسها، ونيمتها فوق صدري، وحنوت عليها، أود أنْ أشتم عطرها، أن تهمس بأذني، وتقول لي حكاية.

أمي..، كم أشتاق لك.

---

(10) قصيدة للشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش.

الدرجة الثامنة والثلاثون: خدعة الحرية

هي حفنة رمل تتسلل من بين أصابعي ويبزغ النهار.

سيتلصّص الشعاع الأول خجولاً بين أغصان جسدها، أبادلها النظرات، فلا أفلح بذلك، ضوء يبهر. يعلو نبضي مع اتساع قرص الشمس، وتصيبني السماء بخوف فيرتبك بنائي، ثم يهتز حجر الأساس مني، فتعيد بناءَه.

– سحر، هل ينبغي أن تبقي نائمة، قومي! أقول، فتقوم ثم تبتسم وتخرج يدها من النافذة وتهز أناملها فوق غيمة مارقة، تداعبها برفق ثم تجلبها لي.

– اصعد، هيا، لنا مكان نحن الاثنان، تهمس.

– أريد أنْ أهذي بك، هل تأذنين بذلك، تضحك ويختلط أحمر شفاهها بلون الغيوم.

- هل تريد غيمة أخرى، سأهديك (كومة) منها، تقول ويهزني الشوق وأغيب فوق غيمة من صنع خيالها.

- ما بال الأشياء كلما صغرت كلما زاد تعقيدها. تتنهد ثم تستطرد:

- الأشياء تصغر وتتعقد وأُصاب بخواء لعدم قدرتي على فكّ لغزها، ترتجف بقلبي كلمات لا أستطيع نطقها، هل أخاف من الحروف، هي مجرد كلمات وجمل متشابكة، وتتلاشى بعدها في عالم المفقود، لم لا أقولها، هل أنا سجينة، كيف نسجن في أنفسنا باختيار مسبق، هل حريتنا خدعة؟ أنا غير مؤمنة بأشياء كثيرة. هل أنت مصغٍ.

- أجل، الحرية خدعة نسبية، قد تمتلك أدواتها في داخلك وقد تضيع منك، هي اجتراح لما لا نستطيع فعله، ما نتمنى أن نكون ولا شيء غير ذلك، لو أعطيت حرية بقدر غرفة لتمنيت أنْ تكون بقدر صالة كبيرة ولو أعطيت الصالة ذاتها لتمنيت ساحة البيت وهكذا، الحرية مطّاطة، مرنة، معجونة من مادة مركبة غير مفهومة، تشعرك في كل حالاتها ودرجاتها بأن هناك هامشاً لم تتخطّه بعد وأنك مستلب لها، هي أشبه بسراب نلاحقه، يقترب، ولكنه بعيد، هو غير موجود أصلاً، هي في دواخلنا، في عقولنا، في ذاتنا البشرية التي قد تصاب بالإحباط لمنعنا من الحركة أو الكلام أو الغضب، هي باختصار: حالة جنون نريدها كاملة، أجل، لنخرج عن المألوف، لنحيِ الجمود الذي قد يصيب حياتنا، لو لم تكن هذه الحالة موجودة لخلقناها نحن، سنعيش دور

المطالب بالهامش المفقود، الذي انتزع منا، سنطلبه وقد نقاتل من أجله، من أجل نيلها، وعند حصول ذلك سنطالب بأن تكون السقوف أعلى. أتعلمين، نصف العمر يذهب نوما، والنصف الآخر يذهب في انتظار ما لن يأتيَ، وبينهما تكمن متناقضات حياتنا ومنها الحرية.

– أُدرك ذلك حقا، ما الذي تود قوله أكثر، هل يعجبك أني لا آبه بالنصف الأول ولا بالنصف الأخير، فأنا أنام ثلاث ساعات ولا أنتظر الكثير، عندي اكتفاء من الحدث والأمنيات ولا أحبذ المبالغة، يكفيني وجودك، وقربك، ورائحتك، وبلاهة موقف بيننا، تصنع لي خمرة تسكرني، نظرتك التي أحبها، صدقاً، أنا في حالة ذهول لا أود الانعتاق منها، تسكن روحي بجانب قلبك، أحمد هل تسمعني؟

– أسمعك، إنّما يعجبني ما قلت، أفكّر بأنه إذا غابت الأماني عنا، هل يتوقف الزمن عندها؟ لقد عشت كل عمري، وأنا أتمنى، لم تبق مفردة في اللغة إلا استخدمتها لهذا التمني، أنت محقة، الأمنيات قد تكون سبباً في إهدار العمر، والنوم أيضاً، ينبغي أن أعيد التفكير بكلا الأمرين.

التمني، جسر نصنعه كي يوصلنا للحقيقة، أنت تبني هذا الجسر بما لديك من قدرات، تجهز فيه الارتفاع والطول وتطلقه لحجم مرادك، قد يفشل البعض لأنَّ أمنياتهم كبيرة وجسورهم معلقة في الهواء بدون حب، فالحب هو الأساس الذي يضمن لك ذلك، أدواتك، طاقتك وتلقائية

أمنياتك، الطبيعة تقبل الأمنيات منك بشكل تدريجي، لن تجد مصباحاً تدلكه فجأة بثلاث أمنيات، المارد يريد بضع الوقت لصنع المعجزات، المارد هو حالة الشروق، والغروب، وصوت البحر، وتكاثف لحظة انصهار الريح مع الرمل، هي التي تسند أمنياتك وهي التي تعطيك أساس الجسر.

الأمنية حلم، لكنه قد يختفي لمجرد عدم التفكير به، أقصد أننا نحن السبب بعدم تحقق الأمنيات، لا بد من التركيز في الحلم ليصبح حقيقة، ذاك الجسر الذي قلت عنه منذ قليل، الطبيعة تمتص طاقتك، لكنها لا تضيع، هي تدخرها لك، وتبثها في حلمك حتى يتحقق، فإنْ أردت شيئاً، ينبغي أن تعطي بقدر ما تأخذ، أن تحب وتبث طاقتك في الأثير، وهي حالة الانعتاق التي تقبلها الطبيعة من حولك، أي طبيعة كانت، لا يهم المكان، المهم أن تفيض بما لديك، أن تترك نفسك كطفل لليل وكصديق للعصافير وكفراشة للزهور وكحبة ندى عند الصباح، أنْ تتوحد مع ذاتك، أن تتنفس عطر المحبة وتنشره للناس، عندها ستتحقق أمنيتك.

- أحمد أنت تخيفني!

- الفلسفة تحتم أنْ نبتعد عن العاطفة أحياناً، لا تكوني حساسة، هي مجرد أفكار كنت أود قولها، هل تودين الرقص؟ أحب أنْ أراك ترقصين.

وترقص سحر، ويرقص قلبي معها.

الدرجة التاسعة والثلاثون: حَبل السرّة

أنا أفقد جزءًا من عقلي!

حتماً هي ليست مصادفة، فقلبي ينبض بسرعة لم أعهدها من قبل، وهذه الذاكرة، تتوقف قليلاً عن العمل ثم تنشغل بقصص انقضت عني ونسيتها، هل أنسى؟ لا أعتقد بأن المرء ينسى، هو يخبئ نقطاً من ذكرياته لإشعار آخر، فالذكرى تتحول إلى نقطة في شريط سري وتنتظر أنْ تطلب لتعاد مرة أخرى، أنت محكوم بدهاليز لا تعرفها في رأسك، جسدك الذي لا تعي كنهه، هو من يحدد ما تتذكره أو تنساه، أحسّ بذاكرتي كغطاء مخملي ينكشف عند اكتمالها وينبري عند ضياعها، تضيع هي، تصيبني بوهن لا أعرف كنهه، فأنسى تاريخ اليوم، ومواعيدي، وأسماء كنت أحتفظ بها بجزء محدد من رأسي، أين تختبئ الذكريات؟ حتما ليس داخل عقلي ولا في نبض قلبي،

الذاكرة محض بصمة في كامل جسدنا، نلمسها عند حدوث الفعل وننساها عند مرور الوقت، هي مخبأة في الروح ذاتها، ملتصقة بماهية محتجبة، تتيه في دواخلنا، لا نملك سيطرة عليها، نحفها، نضغط على عقولنا، فتعتذر منا ودائما ننسى.

- هل تحس بي؟
- أحسّ ولكني لا أتذكر.
- أجل، أشعر بك.
- هل أنا أهذي؟
- ربما، لا تأبه لذلك.

حبل السرة مضحك، يشبه حبل الغسيل الممدود فوق أسطح الجيران، يمتد بين الأم وجنينها، وينقطع عند الولادة، فينقطع الود بعدها. من يدرك هذه العلاقة سيعرف أن علاقة الأمومة ذكرى لا أكثر، ودليل ذلك الصدّ الذي يصيب الطفل عندما يكبر، هل أثبت لك هذا؟

- لا، أود أنْ تحدثني عن الحب، قل لي أنك تحبني، أود أنْ أسمعك ترددها.
- تعرفين ذلك، هل ينبغي أن أقولها لك.

- أجل، هي تشبه نظريتك بشأن الأمومة، نودّ نحن النساء سماعها برغم كامل يقيننا بها، هي كلمة صغيرة لكنها تَحزّ في نفوسنا. كلمة تشبه الأحرف الأولى التي ينطقها الرضيع، تثلج قلب الأمّ وتسعد بها، بالرغم أنّها تسمعها آلاف المرات، لكنها مختلفة من فم طفلها، كلمة بسيطة وقد تكون متلعثمة، لكنها تفرز عشق الأم وتحيله إلى عطاء.

- أحبك، جداً، ويسكنني الشوق والعشق.

تفترش سحر طريق عقلي، تتوغل في مسامات جسدي فأتنفس كلماتها، هادئة، تحرك حاجبيها عند الاستغراب وتطلق ضحكة متقطعة عندما لا يعجبها كلامي، بريئة أحياناً ترمي ألعابها أمامي، أعاتبها بوله، وبلغة أب، وأحيانا تكون معلمة لي، تسدي لي النصح والمشورة، تمسك يدي وتدلني على أول الطريق.

سحر تُرتب غرفتي، تبرطم بأحرف لا أفهمها وتهمهم بزفرات كلّما رفعت أحد ملابسي عن أرض الغرفة، كتبي ملقاة بفوضوية لا تحبها، تؤنبني على عدم اهتمامي بترتيب غرفتي، تقول أنني مهمل باحتراف وأنَّ فوضويتي مزعجة إلى حد كبير، تطلب مني أنْ أكون مرتباً ولو ليوم واحد.

- حاولت مرة ذلك لكنني شعرت بإرهاق شديد من تنظيم الكتب من حولي، أحبّها مهملة وأشعر بأني في حالة من التجلي كون الأشياء متشظية من حولي، تشتّت يغريني ويجعلني متلذذاً بها.

- تخلى عن فوضويتك حبيبي، أطلقها للريح! تقول مقطبة جبينها.

- لا أستطيع، عندما تنظم الأشياء فأنت تحد من حالة الفوضى، فالنظام في حرب مع الفوضى، لكن الأصل هو الفوضوية في الطبيعة، وهي النظام الذي يجعل الجبال في محلها وينبت الأشجار وينزل الشهب ويؤطر الكواكب، حالة النظام قد ترهق الكون وتحيله إلى خراب، فتنظيم غابة وتقطيع أخشاب منها أو إعادة زرعها قد يهدم البناء الطبيعي، الفوضى مرتبطة بتلقائية مطلوبة، والنظام إذا كان مصطنعاً سيمثل حالة غير خلاقة، وقتل البساطة، وترتيب الأفكار والأثاث وصناعة ضوابط له ليست سوى تحجيم للعقل.

- تحجيم للعقل، لقد غَلبتني!

وتسقط سحر من يدها مجموعة الكتب، ثم تلخبط الأوراق فوق مكتبي، نضحك بصوت يخفت بلمسي لشفتيها بإصبعي، أطبق عليهما بنهم ونغيب بفوضانا.

الدرجة الأخيرة: أين ستمضي

أرتجف كلما شممت رائحة الخبز..

تلك الرائحة التي لا يعيها الكثيرون، أنا أعشقها، أذكر كيف كانت أمي تُحمّص الصاج، تعجن العجين من ليلة فائته، تكمره بغطاء صوفي، أقول لها: هل تخافين أن يسرقه أحد ما؟ أو تخافين أن يبرد، فتبتسم كعادتها، لا تنهرني، تحبني، تقول: دعه يتخمر، يحتاج إلى الحرارة كي يصير عجيناً طرياً، يا الله! حتى العجين يحب الدفء، وأنا أشتاق لهذا الدفء، وأتلمس حركات أصابع أمي التي لا تكف عن الخبيز، صباحاً، قبل أن يستيقظ الأشرار وقبل أن يعرفوا سِرّ الخليقة، تُعد أمي الخبز، وتفوح رائحته في الحارة المجاورة، ويكون لونه كلون بشرتها، ذهبياً لا تخالطه شائبة، تقوم من مجلسها لتغلي القهوة، ولتختلط رائحة الخبز برائحة القهوة، هل تريد المزيد وتزيد لي الخبز،

وأنا متكئ على يدها وألتهم قطع الخبز، وأغني لها، صوتي شجي، تقول هي ذلك وتمسح فوق رأسي وأنا أبتلع الخبز، وهي تشرب القهوة، وتغني معي، كم هي شاهقة هذه المرأة، فنانة ترسم البسمة فوق شفاه الجميع، تمسك فُرشاتها فجراً، وتخط فرحة لكل من حولها.

اقترب الربيع وأنا لم أجد عملاً جديداً، كان إيقاع يومي يبدأ بتسلسل رتيب وبطيء، رفض كل رؤساء التحرير حتى مقابلتي، الجميع يقول نفس الجملة المعتادة: الله يفرجها! وكمن يعلق خطاياه على مِشجب الدين، يُعلّق هؤلاء ضعفهم بهذه الكلمات، كيف سيتدخل الله بقوم فقدوا قلوبهم وعقولهم ثم فقدوا شرفهم، كيف سيفرج عنهم وهم لا يفرجون عن الآخرين، ويسجنون أنفسهم بين بضعة قضبان وهمية، يرتاحون لها، عبيداً لا يأبهون بالوطن ولا يخجلون من أنفسهم، هم حتما لا يخافون الله، لكنهم يخافون من نسائهم وأموالهم، ينسلون كقطيع من الجاموس، برغم ثقافاتهم وعلمهم فهم جهلة، أميّين لا يميزهم عن الجماد غير حركة أجسادهم.

سأُصرّ على الرحيل وأنت تمسكين بحقيبتي الصغيرة.

- ما لك وهذه الحقيبة، دعيها قليلا، هل تودين معرفه ما بها؟ لقد خبأت بها دموعاً لم تذرف بعد وقميصاً مخططا جلبته لي في عيد ميلادي الأربعين، وأوراقاً كتبتها على عجل، وانكساراً لطفولة قاسية وعمر لوحته السنون.

- ابقَ! تقول سحر ثم تضغط على الحقيبة بإصرار.
- وفي الحقيبة أيضا، بضع خيبات ونكستان وبصيص قهر وقصة حب لن تكتمل.
- لن تكتمل! أرجوك لا تكمل، خذ حقيبتك.

ترمي سحر الحقيبة جانبا ثم تجهش بالبكاء، ياه، سحر تبكي بمرارة، كطفلة ستفقد لعبتها يرتعش كتفاها، ترفع يديها فوق وجهها، لا يبين من رأسها غير شعرها المتناثر، تختلط الدموع بكحل عينيها فيسيل الدمع أسودَ على خديها.

- أين ستمضي؟ تقول سحر.
- لا أدري، سترشدني السماء حتما.
- أنت تدفعني إلى الجنون، كن عاقلاً وامكث قليلا.
- الجنون، أوده بالكامل، أنا طامح له بكل تفاصيلي، فهو حالة الأصل وحالة العقل هي الزيف بحد ذاته، يكفي تقييداً، سأدع عقلي يقرر ما يحلو له، لن أرضى بأنصاف الحلول بعد اليوم..... أستودعك السلام.

الدرجة الأربعون: سأسكر، فلربما عاد نبضي!

صاحب الخمارة..

يعطيني شرابا أحمر اللون، شاربه الأبيض مغطى بلون أحمر، يرفع الزجاجة عالياً ويشرب: بصحتك يا سحنون ويطلق ضحكة رعناء، وأشرب العصير معه، طعمه غريب، (يع)، ولا أستطيع بلعه، أحس بمرارة في فمي وحرقة في حلقي، أبو سعده أيها الشيطان العجوز، هل هذا (كاز)، أصرخ به، فتغرورق عيناه من الضحك، يتمايل فرحاً، هل هذا مشروب سحري، أبو سعده سأجرب مرة أخرى، أود أن أفرح مثلك، أود أنْ أنسى الحزن، لا أريد تذكر أمي في هذه الساعة، هل سأنسى، ويستمر أبو سعده بالضحك: (والله سأنسيك حليب أمك يا سحنون)، أشرب، ويقلب الكأس بفمي عنوة، أجل أود أنْ أنسى حليب أمي، وأشعر بِغصّة قصيرة، وتدمع

عيناي من طعم الشراب، أنه اهتزاز، أود لو يعطيني المزيد من هذا الشراب: أود كأساً أخرى، أقول، وينهرني: (ولك هسه بتسكر، إحنا هيك ومو خلصانين منك)، يعطيني كأساً أخرى بمكر، أسكر! هل تسمي هذا سُكرا! إذن أود أن أسكر، هل سأطير بعدها، هل سأصبح عصفوراً، هل سأبتعد عن هذا المكان، زِدني يا أبو سعده، فكم أحب الطيران.

أشرب بملء فمي، يزدادُ الطعم حلاوةً، يصعد لرأسي، يعتري صهوة جبيني، إنه قابع فوق حاجبي، أمسد بيدي ليختفي، لكنه يتسع نحو أذنيَّ، يتشبث بهما، أشعر بدغدغة، أضحك ويضحك معي أبو سعده، عيناه ترقبانني، تتسع ابتسامته كلما زاد ضحكي، عيناه تتغيران، تكبران تارة ثم تصغران كعيني فأر، ألمس وجهه، لماذا تستطيل ذقنك ثم تقصر؟ أبو سعده، هل أنت شيطان؟ لماذا يعلوك الغبار؟ لونك أسود وعيناك صفراوان، أبو سعده رقبتك طويلة، أحس بالخوف وشلل يصيب رجلي، يتغير وجه أبو سعده في كل انحناءة له أو ضحكة، يطير عقلي ولا أستطيع الحركة، سيقتلني أبو سعده، سيشرب من دمي، (الرجل أبو رقبة) سيقنص عمري ويحرمني من القطط، أحاول الصراخ، أتأوه، يرتعد أبو سعده، يحاول الاقتراب مني، أدفعه برجلي.

- (ولك شو صارلك، سحنون، هبل يهبلك). يقول مُتأففاً.

أود البكاء، أصرخ، يسعفني صوتي فأبكي بدون دموع، أين دموعي؟ هل سرقت دموعي أيضاً يا أبو سعده، أعطني دموعي، أمسك برقبته الطويلة، أرجع لي دموعي، أبكي، بلا أي دموع، أشهق بالبكاء، أعصر عيني، أنا أخلو من أي دموع، قطرة دمع ستريحني، قطرة فقط يا أبو سعده، أترجاك، وينتفض أبو سعده كمن أصابه مسّ، ينفض جسده من أثر حذائي، يرجع للوراء ثم يطلب مني مغادرة خمارته.

- (اقلب وجهك سحنون، لعنة الله عليك وعلى اللي فكر يسكرك).

- كأس أخير يا أبو سعده، أستحلفك بابنتك، أن تسمح لي بكأس أخير، علني أستعيد دموعي، علّ قلبي يرتاح، أود أن أتنفس، أن أشهق فقط، دمي يصعد باتجاه رأسي، رأسي متخم بأفكار أعرفها جيداً، تتوزع صور عديدة أمامي، صورة فتاة أعشقها، وحَيّ أعرفه، وحرف ضاع مني، وأم ماتت بؤساً، وأب سلبني الفرحة، فتدمع عيناي.

أستوي، أترك رقبة أبو سعده، ينبهر الرجل بكلماتي، أنظر لعينيه، يقف أمامي كشبح فقد جسده ثم يصرخ والدموع تنهمر من عينيه:

- أحمد، أنت أحمد، (يا ناس أحمد الكاتب رِجع).

أنظر من حولي، رأسي ثقيل، المكان مألوف لدي، زجاجات الخمر تتمايل مرتبة فوق الرفوف بسخرية، أجيل النظر بالانعكاس المقابل لباب الزجاج، صورة لرجل أربعيني بثياب رثة، وشعر منكوش ولحية نامية بإهمال واضح،

صورة لعينين خلت منهما الحياة وقلب هجرته السكينة، يتجمع الناس حولي إثر صراخ أبي سعده، يدخل الخمارة فجأة مؤنس. يقف في مواجهتي، أود أنْ أحضنه، أنْ أبكي صارخاً، يهمس مؤنس:

- أحمد! هل عدت؟

وتغرورق عيني بالدموع، ولا أستطيع الإجابة.

- قل شيئاً، أتود أن نشرب (نارجيلة)؟، فأهز رأسي مبتسماً.

-النهاية-

السيرة الذاتية

- د. نائل العدوان
- قاص وروائي أردني وفنان تشكيلي من مواليد 1974 .
- يحمل درجة الدكتوراة في اقتصاد الأعمال - الاتصالات من الجامعة الاردنية.
- حائز على الجائزة الاولى للقصة القصيرة لرابطة الكتاب الأردنيين عام 1996 والجائزة الأولى للقصة القصيرة للجامعات الأردنية بنفس العام.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين ورابطة الفنانين التشكيليين .
- له مجموعة قصصية بعنوان المرفأ، صدرت عن دار فضاءات للنشر عام 2013 ، ورواية تحت الطبع بعنوان غواية لا تود الحديث عنها.